تاجُ الجِنِّيَّـــاتِ

وفاء شهاب الدين

تاج الجنيات / رواية
وفاء شهاب الدين
الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ،١٠ش عبد الهادى الطحان ، المرج
موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
عبد الرحمن حافظ
تدقيق لغوي :
سارة سرحان
رقم الإيداع : ٢٠١١٥/٢٠١٠
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٥٣- ٧

تاجُ الجِنِّيَّـــاتِ

رواية

وفاء شهاب الدين

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى:

خطيئة...

اختلَقَتْها مُخيِّلتي، وأقرَّها قلبي، وظل العقل يحارب ويحارب من أجل غُفرانها، ولكن هيهاتَ فلا أنت تغفر، ولا تتركني أنعم في عالم الشياطين.

لم تكن مضطرًّا أن تحياني، ولكنني أُجبرتُ أن أعيشك، منحتك طريقًا ممهَّدًا لرضوان؛ فأهديتني لجحيم مالك.

الآن أعلنها لك..

لا أنت دنياي.. ولا أنا حياتك.

وفــــــاء

أجلسُ أمامَ المرآة،لالأبحثَ عن ذاتي كما اعتادت انكساراتي أن تفعل، ولكن لأتزين، أنظرُ إلى أدوات زينتي التي هجرتُها، أستجديها روحًا فارَقَتْني، أُطالبها في صمت أن تمنَحَ وجهي حياةً ملَّتني، أُشفق على نفسي ترك حزن يتغلغلُ داخلَ كياني وحدادٍ لم أُكمل طقوسه حتى طالبني نديم بهجره، لم أستطع مقاومةَ ذلك الصوت المحبب وهو يطالبني بالتخلص من ذلك الأسود إكرامًا له ولشقيقته العروس.

جلستُ أمامه مشدوهةً أستر ملامح الصدمة بابتسامة هادئة، كدتُ أقولها له: "أتطالبني بكسر حدادي والذهاب إلى عرس شقيقتك بعد وفاة جدتي بأقل من أسبوع، وأنا لم أُفرِغ بعد كم أحزاني أيُّها الزوج البائس والحبيب الذي فارقَهُ الحظُّ بامتلاكي".. ولكنني لم أستطع تكدير عينيه بتلك الكلمات، ورحتُ لأخلع عني رداء الحزن، وأُلوِّنَ وجهي عسى أن تطمر المساحيق أوديةَ الدموع، أكتحلَ حتى يُبعثَ بريق عينيَّ، وأصبغَ

شفتيَّ حتى أواري لون الموت المرتسم عليهما، ونظرت إلى مرآتي نظرة أخيرة لأجد أخرى تبتسم؛ فتمنَّيتُ للحظة أن أكون تلك الأخرى.

جلستُ بقاعة العرس أنظر إلى الورود، تصافح آذاني الموسيقى التي تنساب في رقة كنسمة شمال، كل شيء من حولي يبتسم ويدفع المشاعر للغناء، إلا قلبي الذي كان يعزف لحنًا آخر، لحن وجعٍ أبى أن يتوارى في يوم كهذا.

رأيتُهُ من بعيد معانقًا ذراع شقيقته العروس يمشي تجاه زوجها ليسلِّمها إليه كأمانة حان موعد أدائها، ما إن أمسك الزوج بيدها حتى امتلأت عينا نديم بالدموع، ورأتها "عالية" فتركت يد زوجها وتعلَّقت بعنق شقيقها فارع الطول، كشجرة تظلِّل كل أهله وتطعمهم من ثمر الحب ما يفتقدون.

كان سعيدًا يبتسم، ولكنني لمحت بداخله عبرة فشلت في أن تتوارى عني؛ فقلبي يلتقط شفرات مشاعره ويترجمها فورًا بدون عناء، كنت أدري أنه ليس هنا، وأن جسده الحاضر أمامنا تخفي مرايا عينيه ذكريات مؤلمة بعثتها شقيقته الصغرى عندما ارتدت ثوب العرس وهمت بالابتعاد عنه بالسفر مع زوجها الدبلوماسي.

كنت أراقب ملامحه طوال الوقت أحاول أن أقرأ بها ما يطمئنني، إلى أن التقت عيوننا فابتسم وجاء ليجلس أمامي، مد

يده لي بسيجارة مشتعلة فرفعت يدي معتذرة، وجلست أراقبه وهو ينفث دخان سيجاره الكثيف في بطء وهدوء، حجب الدخان عني كل شيء، وغلّف ثوب العروس الأبيض بغمامة ساحرة ذكّرتني باللحظات الأخيرة لجدتي عندما ألبستُها ثوبها الأخير فتحوّلت إلى عروس ملائكية، أخذوها من بين ذراعي لحظتها ليزفوها بموكب هائل، وليُسكنوها قصرها الأبدي.

تذكّرت تلك الليلة التي زارتني بها جدتي بالحلم فأيقظتني وقالت بصوتها الهاديء: "نهاد!".. فأجبتُ وأنا أنفض عن رأسي رذاذ النوم: "نعم يا ستّي"... قالت: "إصحي كده عايزة أقولّك حاجة".

قلت وأنا أُغالبُ نُعاسي: قولي يا ستي.

قالت: عايزاكي تكوني آخر واحدة تقفلي علي باب القبر.

اختفت فأخذت أناديها: ستي... ستي.. ستي...

انتبهتُ على صوت نديم يهمس لي: "نهاد.. حبيبتي.. ماذا بكِ؟"

أجبت: أعتقد أنه كان حلمًا.. نديم هل تسمح لي بالسفر غدًا؟.. أريد الذهاب لرؤية جَدَّتي.

قال: لدي عمل بالجامعة غدًا صباحًا.. نستطيع السفر مساءً.

جلستُ أمامها، أتأمل وجهها المتغضّن الذي لم تستطع تجاعيده أن تخفي جمالًا أصيلًا، جَبُنْتُ عن ذِكر الموت أمامها فقلت: ستي.. انتِ مش عايزة تقوليلي حاجة؟

ردَّت دموع ملأت عيناها فقالت: أيوه.. عايزاكي تِقْعُدي معايا اليومين دول، وخايفة لا جوزك ما يرضاش.

كلماتُها جذبت حنيني لكل تلك السنوات التي قضّيتها تحت رعايتها فقلت: هقعد معاكي يا ستي، ونديم عمره ما هيرفض، انتِ عارفة هو قد إيه بيحبِّك.

لم يُكذِّب نديم حسن ظني به؛ فقد أوصاني بأن ألازمها وسافر هو وحيدًا ليترك بقلبي وحشة لا يبددها وَصْلُ العالم كله.

ذات ليلة، وبينما تتوسد جدتي ذراعي هاتفني، وبدأ حديثه قائلًا: حبيبتي، هل تسمعين أنغام الموج من خلفي؟

قلت: نعم.. أين أنت؟

قال: بالإسكندرية.. لجأتُ للبحر كي أشعر أنني معكِ.

قلت: ولكنك تدرك أنني أخشى البحر، ولا يوجد ما يجمع بيني وبينه.

قال: أنتِ والموج سيَّان.. كلاكما تعلوان فوق قمم ضعفي، أخشاكما.. ويحمل لكما قلبي الحنين، أتدرين.. إني أداعب

الموج وكأنني ألاعبك، أستسلم للموجة وأسمح لها بأن تغمرني كما يغمرني الشوق إلى عينيكِ.

قلت: نديم.. أنا أيضًا أشتاق إليك، ولكن هناك ما يقلقني عليك، ما الذي يدفعك للخروج إلى البحر الآن؟ لقد تجاوزت الساعة الثالثة، من يرافقك؟

قال: لا يرافقني سواكِ، بهذا الليل البارد لا يرافقني سوى البحر ومد ذكرياتنا، نهاد.. أريد أن أعترف لك بشيء.. أنا في الحقيقة مولع بك، ولا يمنعني عنكِ الآن سوى جدتك المسكينة التي أسرتيها كما أسرتيني بتلك الطيبة وذلك الحنان.. نهاد.. أحبك.

توتَّرت كلُّ خَلَجاتي، وشعرت بخوف غامض يحلق بسماء ظنوني، خشيت أن تستكثره عليَّ إحدى جنيات البحر فتستأثر به، فلا يوجد مخلوق تستبد به هرمونات الأنوثة يستطيع مقاومة ربطة عنقه نصف المربوطة، وعطره الأخَّاذ، وسيل ابتساماته، قلت بخوف: نديم.. أرجوك.. اترك ذلك المكان الموحش.. وعُدْ.. لا تجلس وحدك.

قال: أنتِ برفقتي أيتها الحورية؛ لذا لن أخشى شيئًا.. نهاد.. هل تحبينني؟

- نديم.. بأعماقي أنت اللؤلؤ، أتحمَّل من أجلك أنياب القروش وذيول الحيتان.

قال: حبيبتي.. بطارية الهاتف تضن علينا بالوصل، ولكن.. تصبحين على حب.

انقطع الاتصال، وظللت طوال الليل أبحث عن رادع لظنوني، شعرت جدتي بقلقي ففتحت عيناها في ضعف وقالت: ما تقلقيش يا بِتّي.. ما تضيعيش حياتك كلها في القلق.

قلت: سِتّي.. إِنْتِ عمرك حَبِّيتِ؟

غمرت ملامح الوجه الطيب لمسةُ خجل وقالت: ياه.. حبِّيت مرة من زمان قبل ما اتجوِّز سِيدِك.

قلت: كنتو بتحبوا زمان يا ستي؟

قالت: الحب في عُرْفنا عار، بس كنّا بنحب، أنا حبيت، وأُمّك حَبِّت، أبوكي وإنتِ ذات نفسك اتجوِّزتي عن حب.

صَدَمتني الكلمة؛ فقلت بدون تفكير: لا يا ستي، أنا ما اتجوِّزْتِش عن حب.

هزّت المفاجأة جدتي؛ فاتّكأت على ذراعي لتعتدل في جلستها، وقالت: أمّال؟

رددتُ: لما قاللي إنه عايز يتقدم لي وافقت؛ لأني حسِّيت إنه مناسب.. أستاذ جامعي، ووسيم، وسنه كويِّس، وابن ناس.. عمري ما كنت هلاقي عريس زيُّه هنا.

قالت: أنا افتكرت وَقْفتِك قصاد الكل دي عشان بتحبِّيه.

-أنا حَبِّيته بعد ما اتجوِّزنا مش قبلها.

شعرت أنني يجب أن أوجِّه الحديث وجهة أخرى؛ فسألتها: ستِّي، أنا من أسبوع حلمت بيكي بتقوليلي إنك عايزاني أكون آخر واحدة أقفل عليكي باب القبر، إنتي مش عايزة توصِّيني بحاجة؟

قالت: لا، عايزاكي بس تُقَفي على غُسلي، وتقريلي قرآن، وتبقي تترحَّمي عليَّ.

استسلمت لنظراتها المُستفهِمة، وكأنها تسألني لم أخبرتها أنني لم أحب نديم رغم أنه يستحق الحب، لم تدرِ أنني أحمل له بقلبي الكثير، والذي ضاق قلبي عن حمله، فلن يتحمل ثقل كلماتي أحد.

استقوى على جدتي المرض فاستسلمت له،ونُقلت إلى إحدى المستشفيات، وبإحدى الليالي في أثناء نومي، سمعتها تناديني؛ فقمت لأتفقَّد روحها المعلقة بين السماء وبيني، فأخبرتني أنها ترغب في أن تستودعني أحد الأسرار، انتبهت خلايا إدراكي حتى أستطيع تلقِّي ذلك السر، ولكنها طلبت أولًا أن أمنحها كوبًا من الماء البارد، وما إن ارتشفت الرشفة الأولى حتى ضاق تنفسها وفشلت كل محاولاتي لمساعدتها، ونقلها الأطباء هناك.. حيث الرعاية الفائقة.

وفي صباح اليوم التالي رحلت في صمت لا يتناسب وجلال حياتها الصاخبة، ونفّذتُ وصيّتَها الأخيرة؛ إلا أنني كنت ضائعة لفقداني ذلك السر الذي أرادت أن تبوح به إليّ وأنا أقرب من يحمل دمها.

تعالَتْ الموسيقى الصّاخبة لتنبهني كي أستيقظ من أحداث الماضي القريب التي سيطرت على حياتي بصورة أصبحتُ أخشى معها ألّا أعود لحياتي التي ألفتها.

هنالك جلس نديم على آلة "الدرامز" وأخذ يعزف في خفة وتمكُّن، مرَّت فترة طويلة لم أشاهده يعزف، كان يتعلَّل أحيانًا بأن زخم المشاعر لديه لا يوازي فيض الأحاسيس التي يحتاجها العزف، وكم سعدت أن ذلك الفيض قد زاره أخيرًا.

في البيت.. جلس صامتًا ينظر إلى الحائط الذي ازدان بصورنا معًا، تتحرَّك عيناه معلنة إشارة التفكير في أمر ما، تُرى.. هل يتذكَّر ليلتنا الأولى معًا، أم يشتاق لليلة حب بطلتها أخرى؟ تُراه سئم التطلُّع لتفاصيلي بعد أن حفظها، أم أنه يفكر بوسيلة مبتكرة ليضع بداية جديدة لنهايات قديمة؟ ابتسم فجأة وقال: لم لم أذبح لك قطة على باب مخدعنا ليلة العرس؟

قلت: ألا يكفيك أنك ذبحت براءتي، أم أنك دومًا تشتاق للدماء؟

رد: حبيبتي.. لأبجديّات الحب أصول تُروَى دومًا بدماء العذارى.

قلت: ما علاقة ذبح القطط بذبح العذارى؟ وما علاقة الاثنين بليلتنا هذي؟

قال:هذه ليلة مميزة، سلّمت فيها أعز حبيباتي بيدي لأحضان رجل آخر، تنتاب صدري نيران تصعد لرأسي في قسوة.

– هل تغار على "عالية" من زوجها الدبلوماسي شديد الوسامة؟

لاحت ابتسامة على ملامحه الملتاعة وقال: يبدو أنني مضطر للغيرة على زوجتي أيضًا.. هل أنهيت طقوس حدادك؟

قلت: عندما تكون معي أنسى الحزن ولا أتذكّر شيئًا سوى أنك معي.

كان فكري غائمًا، حاولت أن أستمطر كل سُحُبه حتى أروي زهور محبتنا، ولكنني لم أستطع.. أتقلب بين جنبات الأحداث الأخيرة محاولة إيجاد سببًا ما لأعيش دون تذمُّر، تُطل على ذاكرتي قطة بيضاء أهداها لي نديم بعد زواجنا.. ترى هل أهداها لي ليذبحها كعادة الرعيل الأول ممن يحملون الصفات الوراثية لـ"سي السيد"؛ ليخضعني ويضمن سيطرته الكاملة عليَّ؟ أم أنه كان يريد إسعادي؟

استيقظت ذات صباح لأجد شيئًا صغيرًا يتحرك بجواري، فزعت، قمت لأجدها بجواري ونديم يداعبها، وقد ارتسمت بعينيه شقاوة أعشقها، منحها اسمي، وطالبني بحبها لأنه عشقها منذ رآها؛ فقرر امتلاكها على الفور، وصدقته؛ لأن شهوة الامتلاك لديه تفوق كل رغبة، ظلت لديّ إلى أن استيقظتُ يومًا و لم أجدها، لا أدري لم انتابني إحساس بأن نديم هو سبب اختفائها، وكأنه لا يريد لأحد أن يشاركه اهتمامي.

تهاجمني أسراب الملل، فلا تدع لي لحظة بدون أن تصبغ حياتي بلونها الفريد، مللت زوجي وعملي وحياتي، مللت حتى النظر إلى وجهي بمرآتي، لاحظ نديم ما أمرُّ به،حاول مساعدتي، ولكنني مللت حتى يده الممدودة لي دائمًا، سئمت نظراته المتسائلة دائمًا تبحث بداخلي عما يؤلمني، اشتقت لرغبتي الجامحة في التواصل معه، اشتقت لابتسامة عينيه حين يرد بها على ابتسامتي، ذهبت لطبيب نفسي علّه يبتكر وسيلةً يجلد بها ألمي ويعيدني كما كنت.. فياضة الحب، دفّاقة المشاعر، لكنني خشيت الاعتراف له بما أشعر،جلست أمامه وقد أمطرت عيوني سُحُب الخيبة، وعجزت عن منع تلك الأمطار التي أغرقت كل محاولاته لجعلي أتكلم، لم أستطع تعرية مشاعري أمام رجل آخر، و لم أرد إظهاره بمظهر القاتل؛ فلن أسمح لنفسي أبدًا بتشويهه، حتى وإن داستني تطلعاته، فرغم كل شيء أحبه.

نديم

أفتح عيني كل صباح على وجه تلك الحورية، تبتسم لتخبرني أني دائم التأخر على عملي؛ فأجيبها بأنني لا أرغب في العمل، أرغب في أن أقضي كل حياتي أتأمل تلك العينين الباسمتين في وجع يطيح بقلب أعتى الرجال، يوم رأيتها للمرة الأولى، شعرت بأن ذلك الشيء النشط دائم الحركة يومًا ما سيستوطن قلبي، تلك الملامح فياضة الحسن، وذلك الجسد الفتَّاك يومًا ما سأفكر بامتلاكه، لم تخب تنبؤاتي؛ فقد شعرت بأنني أغرق ببحار ودِّها، ترمي إليَّ نظرةً بدون أن تعي فتشق صدري، وتستخرج من قلبي كل دقاته، وتتركه عاريًا بلا نبضات.

لم تكن الأولى بحياتي، فقد احترفت صيد النساء، وما أن وثقتُ بقدرة أدواتي حتى أثبتت لي أنني فاشل، لم تغرَّها وسامتي، ولم تَصدْها نظراتي، لم تنبهر بعطري، ولم تبك فراقي، كانت الأولى التي تُجَرْجِر كبريائي بوحل اليأس؛ فقد فقدت أمامها كل أسلحتي، وجلست مهزومًا أُرَتِّب قوايَ لأعلَم صمودها كيف يكون الاستسلام، يئستُ.. ووجدتُها تحوِّلُني إلى عاشق جرحته نظراتها البريئة، فلم ألتقِ من قبل بامرأة تُنسيني هيبتي ووقاري، وتجعلني أتخلى عن كل شيء لأتفرغ لملاحقتها.

"عانس"

صَفَعَتْني بتلك الكلمة عندما سألتها إن كانت تنتمي لأحدهم، وتعجبتُ كيف يمكن لكل هذه الفتنة أن تختفي عن عين رَجل ولا تثير لديه غريزة الامتلاك، قررتُ عندها أن تصبح تلك الفرس ملكا لي.. وحدي.

صارحتُها برغبتي في أن تضمَّنا معًا معادلة الحياة، فتعللت بالانشغال بدراستها، وعندما حاصرتُها أخبرتني أها لن تتجرأ على إخبار أهلها بأن هناك رجلًا ما يرغب في امتلاكها؛ فما زالوا يطبِّقون شرائع الريف القديمة، وصاحت بي: "لستُ كسائر نسائك، إن أردتني فحارب لتحصل عليَّ".. ومن أجلها كنت مستعدًّا لأحارب جيوش العالم كله، ولكنني وجدت نفسي أمام كيان أقوى من كل الجيوش، جلستُ أمام عائلتها وقد تجرَّدتُ من كل شيء.. مركزي العلمي الرفيع، وعائلتي العريقة، وثرائي... كان أهلها أناس تهتز شوارع القرية من فرط هيبتهم، لم أستطع إقناعهم بالحصول عليها؛ فقد كانت دُرَّة تاجهم، وكان من الصعب التفريط بها لغريب.

كلَّما ظهر ما يبعدني عنها ازدادت رغبتي في الحصول عليها، واستغرق الجهد لإقناع أهلها ثلاث سنوات.

أخيرًا نجحتُ في ضمها لمملكتي، وعثرتُ أخيرًا على ذاتي المختبئة بداخل بريق عينيها الغامض، والذي يشبه الدوامة؛ ما إن يعلَق به نظرك حتى تهلك.

كان الهلاك بالنسبة لي متعة جديدة لم أختبرها من قبل رغم بطولاتي في محاريب النساء، ولكنها كانت مختلفة، تدفعني إلى ذبح الماضي بدون أن تُجهد نفسها في الطلب، لم تتذمَّر يومًا من تصرفاتي، و لم أرها أبدًا راضية عنها، كانت مزيجًا من الرضا والسُّخط، إن فعلتُ ما يُغضبها يتجلَّد وجهها فيمنعني من قراءة ماكَتَبَتْهُ تصرفاتي، وإن فعلت ما يُسعدها تشع عيناها بذلك البريق الذي يمنحني الشكر.

بعد عدة سنوات شعرت أنني ذبحت طموحي عندما سمحتُ لنفسي بالزواج، وأنا من كنت أرفضه، شعرت أن الحياة بيننا لن يُنعشَها سوى وجود امرأة أخرى تثير بداخلي ما أخمده غموضها، وتترع من قلبي فتيل العاطفة، سئمتُ دور الخل الوفي، والذي يدرك الجميع أنه اختفى من الوجود قبل ميلادي، واحتوت ضلوعي "صدفة" التي حركت بداخلي ركود المشاعر وأثارت كل مخزون رجولتي.

انشطرت حياتي إلى عدة أقسام، طغى عليها قسم المساء الذي احتلته "صدفتي"، وبدأ جليد الملامح في الذوبان، وتشمَّمَتْ نهاد عطر امرأة أخرى احتلت أنفاسي، إلى أن عدتُ إليها ذات ليلة وقد أكسبني كأس خمر شجاعة قلبت عالمي رأسًا على عقب، ابتسمَتْ عندما رأتني أترنح، حاوَلَتْ مساعدتي في تبديل ملابسي، وفجأة اتسعت ابتسامتها وقالت: يبدو أنك نسيت التخلص من آثار شفتيها على صدرك.

قلت في سرعة: شفتيها؟.. من تقصدين؟

جَمُدَت الابتسامة على وجهها وقالت: انظر إلى المرآة ستجد بيني وبينك ظل امرأة أخرى.

وشاركَتْها المرآة السخرية مني؛ فصرختُ فيها: إذا كان هناك - فعلًا - ظلٌّ.. هل تستطيعين التغلب عليه؟

ردَّت بكبرياء: لا يمكنني التغلب على ظل امرأة؛ فلستُ "دون كيشوت"، أُضيع حياتي في محاربة طواحين الهواء.

قلت: إذن.. هل تنسحبين؟

قالت: افعل ما شئت؛ فأنت رجل.

استثارت ردَّة فعلها الجليدية كبريائي كذكر؛ فقلت: ألا ترغبين في معاقبتي؟ ألا تثير بداخلك الغيرة؟ الرغبة في الانتقام مني ومنها؟

قالت: لستُ ملاكًا لأسامح، ولستُ شيطانًا لأنتقم.

صحتُ: إذن؟

قالت وذقنها ترتجف كطفلة رضيعة: إن أردتُ عقابًا فلن أجد سوى هجرانك، فليس هناك ما أستطيعه سوى حرمانك من وجودي.

-- ولكنني لا أستطيع الحياة بدونك؟

قالت: إذن.. لا تطالبني بانتقام.

قلت: ستبقين؟

قالت: هل هناك ما يجبرني على الرحيل؟

قلت: هل تحبينني؟

- لستُ مضطرَّة للإجابة.

سلَّمتُ بأنني فقدت روحها الوثابة، وكسبت تمثالًا شمعيًّا يتحرَّك بفعل معجزة، وقد ولَّى زمن المعجزات، فقدت دهشة عينيها حين أقبِّلها، رغبتها المستمرة في إسعادي، وتذكَّرت أنها لم تنطق يومًا كلمة "أحبك".

درتُ في عالمي ككوكب جامح نبذ قوانين الأفلاك، ودار وحده يبحث عن مدار آخر، وعندها فقط اكتشفَ أنه سار في الاتجاه الخطأ.. عذَّبتني بدون أن تنطق، أعود إلى البيت فأجده نظيفًا معطَّرًا، وأوراق الورد الندي تفترش وسادتي، أبتسم لأمنِّي نفسي برضاها، ولكنها تغلق بوجهي باب الغفران عندما تقول باسمة: "لستَ مضطرًّا لمجاملتي كرجل، فقد توقَّفتُ عن تقبُّل صدقات الرجال".

فقدَتْ رغبتي "بصدفة" جذوتها، ووجدتُ نفسي ضائعًا؛ فأدركت أخيرًا أن تلك الذات الحائرة ما زالت تسكن "هاد".

خجلتُ من أفعالي ومن نفسي، وسئمت محاولاتي الدءوب لاستمالتها، رغم أنني هجرت كل شيء وعدت لسمائي، ولكنها ما زالت تدَّعي أنها تقرأ بعينيَّ ملامح امرأة أخرى، تمرَّدت عليَّ حياتي كما تمردتُ عليها من قبل، إلى أن وجدت في السفر وسيلة للهرب من مشكلات سبَّبتُها وعجزت أن أجد لها حلول، علَّ السفر يفعل ما عجز سحري عن تحقيقه.

أُخــــــرى

علَّمتني صدمات الحياة أن كلما زاد عدد الحبال التي يرقص عليها المرء كلما ازدادت فرص السقوط، شعرتُ منذ اللحظة الأولى بعطر آخر يحتل أنفاسه، لون آخر صبغ ملامحه، ونكهة أخرى زاحمت كلماته، يبتسم فجأة وهو يتناول طعامه، صار أنشط وأعنف، ارتبكَتْ مواعيده، وزادت فترة غيابه، ليعود ويرتمي بجواري ميتًا بلا أنفاس.

تيقَّنتُ من وجودها عندما وقفت أتفحَّصُ آثار شفتيها على عنقه وصدره، وقد ضربت أعاصير الصدمة كل حواسي، سيطرتُ على غضبي بأعجوبة، وأظهرت له عدم اهتمامي بما يحدث، كأثر طبيعي لما فعله بي، فإن أظهرتُ له غيرتي وغضبي أشبعت غروره وأثبتُّ حبي له، حبي الذي محاه عندما سمح لأخرى بأن تسكن المنطقة المقدسة بيني وبينه.

ليلتها وضعت رأسي على الوسادة، وأطفأت عطشها لدموعي لتُزْهِرَ أرَقًا لازمني، كنتُ أتوسَّد أرض غرفتي، وأتكوَّر فوقها لأبكي، حتى شاركتني السماء حرقة البكاء، اعتبرته مات لحظتها وبكيتُ كل ما بيننا، لم أفكِّر في انتقام يرضي أنوثتي؛ فتجاهلي لوجوده أعظم من كل انتقام، وهو الذي اعتاد أن يكون بحياتي الأول والأخير.

كنت أدخل غرفتنا التي هجرتُها لأرتبها؛ فأشتم عطره الذي تركه على الوسائد، واحتضن مكان نومه لأبكي، كانت طعنته الأولى، ولكنها نافذة، قتلت بداخلي الأنثى التي كنت أفخر بحملها بين ضلوعي، سمح لامرأة أخرى أن تمد يدها بداخله لتقتلعني وترمي بأغلى أحاسيسي إلى مرجل الهجران، حينها فقط علمت لم انهارت أمي عندما علمت بوجود زوجة ثانية لأبي، و لم تألَّمت إلى أن فقدت جزءًا من صوابها، وعاشت بعدها تفتقد أفكارها حرارة المنطق.

هاجمتني رغبة أكيدة في الموت حتى أتخلَّص من ذلك العار الذي لحق بحياتي، وأخذت أصلي وأبكي علَّ الموت يرحمني بزيارته، ولكن حتى الموت رغب عني.

جاءني مُبتسمًا، يحاول إخفاء حيرة أظهرها بوضوح تلك الرجفة التي انتابت كلماته، أخبرني أنه يرغب في السفر من أجلي، رغم أنني لم أطلب منه السفر، ولكنَّه أراد أن يبتعد قليلًا عني حتى أستطيع التغلب على تلك الأزمة، وحتى يستطيع هو التغلب على جليد المشاعر الذي غلَّف علاقتنا.

كدتُ أصرخ به: "أتتركني أعاني كل ذلك الويل وحدي؟ أتذهب لتمنحني ذنبًا إضافيًّا يؤرقني وتحرمني من وجودك الذي يساندني، ويبعث بداخلي الدفء، ويُسكن بداخلي أعتى سورات الغضب، ويذبح بداخلي الرغبة في إيذاء الذات؟"

ولكنني تغلّبت على كل ذلك، ومنحته نظرة أفرغتها من كل اهتمام، ومنحته شفتاي كلمة "سأفتقدك"، والتي قابلها بملامح أمطرت عليها الصدمة، اقترب مني يحاول التغلب على ذلك الجدار الذي ضربته على نفسي، وابتسم قائلًا: "توقّعتُ أكثر من مجرد كلمة "سأفتقدك".. تدرين أنني اشتقت إليك كما لم أشتق طوال حياتي؟"

قلت: للشوق درجات.

قال: ارتقى شوقي أعلى قممه، وجلست أتسلق عطفك فلم أجد سوى صدٍّ.. متى تصفحين؟

قلت: في حياتنا لا يقوم الموتى.. انتظر يوم البعث.

قال: ألهذه الدرجة تفضّلين تعذيبي؟ أدري أنني قتلت ثقتك بي، ولكنني أستطيع استعادتها.

قلت: ألم أخبرك بأنَّ من يُقتل لا يعود؟

قال: ولكنني أستطيع بعثها.

قلت: ندم.. زمن المعجزات انتهى.

قال: أُصدِّقك، ولكني ما زلت مؤمنًا بتحقق تلك المعجزة، فذكرياتنا معًا تستحق الاحترام.

قلت، وقد قطع عليَّ كل الطرق: ليس بعد أن استبدلتني بأخرى.

قاطعني: لم يحدث ولن.. لقد كانت نزوة أردتُ بها تجديد اشتياقي إليكِ، مُحفّز يمنحني الثورة على جمود اعترافي وخشيت أن يؤثر على علاقتنا.

قلت: جيد.. أعتقد أنك حققت غايتك.

رد: نهاد.. أريدك.. والآن.

كدتُ أركعُ أمامَهُ متوسلةً أن يحقق ما يريد، ولكن كبرياء الأنثى لديَّ صدَمَهُ قائلًا: إن أردتَ الزوجة فلا بأس، ولكن إن أردت الحبيبة فهيهات.

قال: تدرين أنني لن أفعلها مع زوجة، كنتُ دائمًا أريد الحبيبة.

كنتُ متيقنة أنه لن يتحمل أن يتعامل مع جثة تفتقد زخم المشاعر؛ لذا أبعدته عني، راقبته وقد تقطّع غضبًا، ولكنني تجاهلت كل شيء، ودخلت إلى غرفتي، وارتميت في فراشي البارد، لم تدفئني سوى الدموع ولوعة مزقت صدري.

عند الفجر شعرت به يطبع على جبيني قبلة ويضمني، ثم أحكم على الغطاء وذهب، كدتُ أتعلق به وأطالبه بعدم السفر، لولا منعتني لوعة استوطنت قلبي لأسابيع.

سافر فسافرت معه روحي، وجلست أعبث في تلك الأطلال وحدي، أتمنى أن يفتح باب البيت وينشق عنه، ولكنه لا يفتح أبدًا.

عدتُ إلى أهلي أحاول الحياة، ولكنني اكتشفت أن الحياة هي الأخرى غادرتني، أخرج كل يوم عصرًا أتجول بين الحقول، أتنسم عطرها الذي ربيت عليه، ولكنه فقد الآن تأثيره.. ساقتني قدماي إلى ذلك القبر البعيد الرابض قرب النهر، يحرس الشمس عند غروبها فيمنعها من الغرق، بعد أن فقدت سطوتها ونورها، وتحولت إلى قرصٍ من ألم، وقفت أتأمل ذلك الكيان الذي حوى بداخله جزءًا كبيرًا من قلبي أيام كان غضًّا يحمل حُبَّ الأرض بين جوانبه، أحنيت رأسي أمام ساكنه وسقطت دموعي غزيرة تبكي حبيبًا مخلصًا مات ليقهرني، وأبكي حبيبًا خائنًا عاش أيضًا ليقهرني، كدتُ أقترب منه وأخبره أنني اشتقت إليه، ولكنني خشيت أن تدوِّنها ملائكة اليسار.

قرأتُ الفاتحة وكل ما تذكرت من القرآن علّه يسامحني، هبَّت أنسام الذكريات فجفّفت دموعي، وطالت جلستي وأنا أتأمل شاهد القبر الذي نُقش عليه: "هنا يرقد فقيد الشباب الدكتور ....". لم أستطع رؤية اسمه الحبيب يرتبط بالفناء.. يا للموت! بهذه الكلمات القليلة وصفوا جحيم حب لم تلتق امرأة قبلي بمثله، كم هو صعب أن يتحول كل ذلك الزخم بتلك الكلمات القليلة، عدتُ كما أعود دائمًا من هناك أجرجر أذيال اللوعة.

ثلاثة أشهر مرت عليَّ كأنها سنوات، قتلتُ جسدي المتلهف إليها بالعمل، وأجهدت عقلي كي لا يجد فرصة لتذكرها، أغلقت هاتفي وانقطعتُ عن كل وسائل الاتصال؛ حتى أجد لها العذر في تجاهلها لغيابي، أدركتُ أنني كنت مخطئًا عندما لجئت لبستان لا يناسب جموحي فخسرتُ جنَّتي، هجم عليَّ شوق منع عن عقلي صوابه؛ فتركت كل شيء لأجد نفسي أمام غرفتها المغلقة، أخشى التقدم خطوة فأفقد كبريائي، وأخشى التراجع خطوة فأخسر شوقًا غاليًا اختزنته شهورًا قاتلة.

حسمتُ قراري، أحدثتُ جلبة كبيرة لعلها تستيقظ لترحب بقدومي، ولكنها لم تنتبه، ذبحني الغضب، فتحت الباب فلم أجدها، سيطرت علي نوبة قوية من خيبة الأمل، فدخلت الغرفة المرتَّبة بعناية، أتأمَّل جوانبها، وأتفقد أركانها، وأتحسَّر على ما اقترفتُ وتسبَّب في فراقنا، جلستُ بفراشها وقد سيطر عليَّ الوجع، وملأت عيني دموع... لم أطالبها قط بفراقي، وضعت رأسي على وسادتها العطرة، وأغمضت عقلي عن التفكير، فشعرتُ بأنامل حريرية تتلمس شفتيَّ، كانت هي، تلك الحورية ثائرة الشعر بارعة الحسن، قوية البأس.

مسحت دموعي، وطالبتني بعدم استدعائها ثانية؛ فمنذ الآن انتهى زمن الدموع، احتوتني بين ذراعيها كطفل، وعلَّمتني

كيف يكون الغفران، منحتني ثورة عجزت كل حيلي السيطرة عليها، فتيقنت أخيرًا أني عدتُ إلى نفسي.

استيقظتُ لأجدها تتوسد ذراعي وشعرها يغطيني؛ فتأكدت أن كل تلك الأحداث لم تكن حلمًا ابتدعه خيالي ليخفف عني لوعة لازمتني، وأعلنت مشاعري حينها أني قتلت بقلبي كل النساء، وتوَّجتُها على عالمي ملكة.

لحظات الحب المغلفة بالأمان المفتقد هي ما تجعلني دائمًا أهفو إليها، بين ذراعيها أنسى دائمًا قوافل النساء التي مرت على حياتي، حتى من حفرت على قلبي اسمها بحروف من حب جرفها سيل الحب الذ ي تمنحه لي "نهاد"، كم تمنَّيت أن أضع السدود في وجه ذلك السيل لولا أن وجدت أنني فقدت قدرتي على تشييد الموانع، مررت بألف حب، وألف ألف جسد، ولكنها كانت الأولى التي جعلتني أعبر إليها على جسر من براءة ونقاء، لم تكن محترفة في الحب؛ فقد كنت رجلها الأول، ولكم سعدت بذلك؛ فقد رحمني القدر من الارتباط بامرأة احترفت النقش على أجساد الرجال.

كنت أظن أن كل تلك التجارب لن يمحوها شيء، إلى أن صادفت ابتسامتها يوم أن زارتني بمكتبي للمرة الأولى، جاءت تطالبني بالإشراف على رسالة الدكتوراه التي تعدها؛ فأيقنت أنها الوحيدة التي تستطيع الإشراف على ما تبقَّى من حياتي،

كانت لولا مونتيز الثانية التي أطاحت ابتسامتها بلب الملك، وظل يتعبد في محاريب أنوثتها إلى أن قذفت به إلى جحيم النهايات؛ فأضاعت ملكه، ووضعت نهاية لثقة الرجال بالحب.

خشيت على نفسي سوء النهاية، ومنعني كبريائي من الاعتراف بالاعجاب؛ فقد كانت تنظر إلي كآلة علم لا تحرّكها مشاعر ولا تثير لديها أي اهتمام.. لم تلحظ يومًا أنني غيرت قصَّة شعري، أو استبدلتُ نظَّاراتي، أو بدَّلت نوع عطري، تعاملني كجماد ناطق، وتضفي عليَّ قدسية تجعلني أخجل من كل نزواتي، تلك الريفية البسيطة من جعلتني أركع في معبد الحب منكس الرأس أطلب الصفح، يالقدر!

هــــــاد

طال افتقادي له؛ فأويت إلى فراشه أتنسَّم عطره الغائب، وأتأمَّل ابتسامته التي ملأت الصورة المصلوبة على جدار ذكرياتنا، أتقلَّب على النوم يشفق عليَّ ويمنحني وسادته ولو ساعات قليلة أريح عليها قلبي.. جذبت انتباهي ضوضاء قريبة فشعرت بالرعب، تمنيت لو كان هنا، كنت لآوي إلى صدره يطمئنني، انتبهت كل حواسي؛ فسمعت خطوات تسير باتجاه الغرفة الأخرى، وبمقبض الباب يُفتح، وضغطه على مفتاح الكهرباء، لحظتها فقط تيقَّنتُ أنه هو.

مشطت شعري بسرعة، وأغرقتُ جسدي بعطره المفضل، وقفت لدقائق أهدئ ضربات قلبي المتماوجة ببحرها الهادر، وذهبت لأجده ممددًا على فراشي، مغمض العينين، يبحث عن جنِّيَّة تخلِّصه من عناء السفر، قررت ليلتها أن أكون تلك الجنية.

قضَّينا معًا عدة أيام، إلى أن أخذته مني طاحونة العمل، هذه المرة لم أكن أعاني الوحدة التي روَّضتُها فأصبحت رفيقتي المفضلة، جلست أستعيد ذكريات الفترة الماضية، لأجد نفسي قد تنازلت عن كرامتي عندما سمحت للضعف أن ينتصر عليَّ، تقطَّعتُ بين رغبتي في تحسين علاقتي به كحق شرعي وحق لأنوثتي الجائعة، وبين ما فعله بي، كنت أقضي اليوم أبحث له عن خطأ حتى أبتعد عنه، وأجعلها ذريعة أتحجج بها لأجافيه،

ولكنه لم يسمح للجفاء أن يخترق علاقتنا، وشعرتُ من أعمق أعماقي أن كل تصرفاته تترجم بكلمة واحدة، هي كلمة "أحبك".

شعرتُ بحاجتي للاسترخاء ونفض كل أحداث الأيام الفائتة عن رأسي، ملأت المغطس بالماء الدافئ، ووضعت به سائل رغوي طيب الرائحة، وتمددت بعد أن أغرقت رأسي ووجهي بالماء الدافئ الذي تتساقط دفقاته عليَّ لتشعرني بروح المطر، غمرت أنفي رائحة سائل الاستحمام فأغمضت عينيَّ، ودفقات الماء تدغدغ كل حواسي وكأنني بجلسة "مساج"، استسلمت لذلك الخدر الذي سيطر على حواسِّي، ومنحني راحة طالما افتقدتُها.

طال استسلامي والماء يهدهدني ويبث بداخلي نشوة لم تمر علي قبلًا، سمعت أصواتًا هامسة تنادي باسم لم أتبينه؛ ففتحت عينيَّ لأجد المغطس يتسع ويتسع ليتحول إلى نهر كبير تحفه الأشجار والحقول من كل جانب، ووجدت نفسي وقد انكمشتُ وتحولت إلى شيء صغير يطفو على وجه ذلك النهر، ومن حولي تراصَّ عدد كبير من الفتيات الصغيرات، ظننت أنني أهذي أو أنني أحلم، لولا نادتني إحدى الفتيات قائلة: بسيمة.. يالّلا اطلعي قبل ما نتأخروا.. ووجدتني أرد بتلقائية: خَلُّونا كمان شوية، لسَّه بدري على ما يرجع أبويا من الغيط. ثم

ضربتُ الماء من حولي وأخذتُ أسبح في سرعة، إلى أن وبختني أخرى قائلة: بسيمة.. إحنا مروَّحين يالّلا.. لو ما طلعتيش هنروحوا ونسيبوكي.

تخلَّيت عن مرقدي المريح البارد، ووقفت أنظر إلى صفحة الماء، أتأمل تلك الملامح الدقيقة، والجسد الضئيل، والضفائر الطويلة فاحمة السواد، جلست أدور حول نفسي وأنا أكاد أفقد صوابي، لم أحمل يومًا اسم "بسيمة" وإنما هو اسم جدتي، ولم أحمل يومًا تلك الملامح، وشعري لم يصبغ أبدًا بذلك اللون الفاحم، ولم أزر قط ذلك المكان الغريب، لا أعرف يومًا واحدة من أولئك الفتيات الصغيرات، ناولتني إحداهن ثيابي وصاحت بي: إلبسي بسرعة..أبوكي لو رجع لقانا بره هَيجَزُّرنا.. أمسكتُ بالثوب أتأمَّل ألوانه الغريبة، والتي لم أرتد مثلها طوال حياتي، وجرَّتني من يدي وهي تحثني على الإسراع في الخطو قبل أن تغيب الشمس، ونجد والدنا وقد جلس يتناول عشاءه، وعندها فقط لن يعلم أحد أي جحيم سينتظرنا.

بدأنا السير في طريق طويل تتراصُّ على جانبيه المنازل الطينية الصغيرة، والتي اعتلاها القش كتاج ذهبي يتحول إلى الأسود عند حلول الظلام، تخلو تلك القرية من أي لون للحياة، سوى بعض الأشباح تذهب وتجيء في خفر، كنت أفكر فيما يحدث من حولي، كيف وصلت إلى هنا، وما تلك القرية التي أمشي

بين طرقاها وكأنني أعرفها، وإن كنت أعرفها.. ما بال البشر لا أعرفهم، أين تلك السنوات التي نيَّفت على الثلاثين، والتي تبخرت فجأة لتتركني طفلة تركض في جنبات العالم، ثم أين زوجي الذي ولا شك سيُجَنُّ لغيابي، والذي لم أفعل شيئًا منذ عرفته دون أن أخبره.

أين العالم الذي آلفه؟ أين أنا؟ بل من أنا؟ ومن تلك البسيمة التي منحتني حياها ؟ لم أؤمن يومًا بتناسخ أو حلول؛ فما تفسير ما يحدث؟

وقفت رفيقتي أمام بيت كبير، وقالت في خوف: يا لهوي! الكارثة بتاعت أبوكي هنا، تعالي ندخلوا من ورا من باب الحوش قبل ما يعرف إننا كنا بره ويسوِّد بختنا!

جرَّتني جرًّا إلى أن وصلنا لغرفتنا، مر وقت طويل حتى استردَّتْ لونَ وجهها الجميل، ثم قالت: إنتي مالك النهارده ساكتة كده من ساعة ما نزلتي الميَّة؟

لهجتها الريفية تشبه لهجتي قبل استقراري بالقاهرة، تلك اللهجة التي تربَّيت عليها وحادثت بها كل من أحب، إلى أن اضطررتُ للتخلي عنها حتى لا يتهمني الرفاق بالتخلف وعدم الرُّقي، اشتممت رائحة أمي وخالاتي وجدَّتي وكل عزيز، شعرت بألفة غريبة عندما قمت أتجول داخل البيت، بالمطبخ نساء كثيرات يقمن بإعداد الطعام، نادتني إحداهن وقدَّمت لي كوبًا من عصير الليمون، تبدو كأنها أمي، عدد كبير من رءوس

الماشية تصدر لغطًا مفزعًا مطالبة رعاتها بحقها الشرعي في تناول الطعام، ورجل كبير تقطر ملامحه هيبة ووقار يطالبني بالاقتراب منه، دون أن أخجل اقتربت منه، قبَّلت يده فابتسم، ووجه حديثه للملأ من حوله قائلًا إنني الوحيدة من بين بناته التي تجرؤ على دخول مجلسه، أجلسني على ركبته وأكمل بفخر أنني الأولى من بين فتيات الريف المصري كله التي تستطيع استخدام البندقية، و لم يسبق أن أخطأتُ هدفًا.

لم أهتم بمجاملاته، فلم يسبق لي يومًا أن أمسكت بسلاح، حتى ذلك المسدس الصغير الذي يرافق نديم دائمًا لم أقترب منه يومًا، حتى أنني مت خوفًا ليلة زفافنا عندما خلع سترته وظهر ذلك الشيء المخيف من تحتها، ظل طوال الليل يحاول أن يسكن ارتجافتي، ولكنه لم يوفَّق، إلى أن طالبته بأن ينفيه بعيدًا داخل الخزينة؛ حتى أستطيع التجول في بيتي بدون أن أتصور أن زوجي يعيش وبجوار قلبه ذلك المسدس القاتل.

مدَّ أحد الحضور بندقيته وطالبني بإصابة أحد الطيور الذي أوقعه قدره تحت مرمى بصرهم، تطلَّعت إلى الشجرة البعيدة والتي منحتها الطيور لونها الأبيض؛ فشعرت بخوف يتغلغل بأنسجتي، ارتعشت يدي وهي تمتد لتلتقط بندقيه تماثلني طولًا، وما زاد من رهبتي ذلك الرجل المهاب الذي طالبني بصيد أكبر عدد من الطيور في وقت واحد.

مرَّت دقيقة.. لم أُدرك كيف مرَّت، وسمعت صوت أبي يطالب أحد أشقائي بإحضار الطيور الجريحة، بعد برهة حضر ورافقه عدد من الطيور المصابة؛ فرفع أبي رأسه في فخر قائلًا: والله لو ما عندي غير بسيمة كان يكفيني، بت بميت راجل.. ربنا يحفظها.

أخرج من جيبه قطعة نقود لم أر مثلها في حياتي، وأشار إلى الداخل؛ فغادرت المجلس.

لا أدري كيف أمسكت بتلك الآله المخيفة وكأنني أعرف كل تفاصيلها، لم أُصَبْ بالذعر -كعادتي -حين أطلقت تلك الرصاصات، ويدي الصغيرة تطبق عليها بإحكام، وبقلب فارقه الخوف، لم أسعد كثيرًا بهمهمات الرجال من حولي،وتلك الكلمات التي أمطرت كبريائي، وحوَّلتني إلى طاووس يزهو بتصرفاته.

قضَيت طوال الليل أحاول العودة إلى نفسي، ولكنني بالفعل تحولت إلى أخرى، وتلك الأخرى طفلة تمرح في براءة، تأخذ ملامح جدتي واسمها، وتعيش بين أسرتها، لا أدري إن كنت أعيش الوهم أو إن كانت تلك حقيقة، كنت أتمنى أحيانًا أن يكون حلمًا ينقشع حين يهجرني سلطان النوم، ولكنه طال وطال إلى أن يئست من بلوغ ذلك الصحو.

منزلهم الكبير يحوي عددًا ضخمًا من الأسرار، لم يكن للنساء هدف سوى الأعمال المنزلية وخدمة الرجال، ليس لإحداهن رأي، ولا تجرؤ أنثى على الحديث أمام أبي، عندما تفاجأ أحداهن برجل تغطي وجهها وتفر، وكأنما فاجأتَ عنقاء أتتْ فقط من الكتب الخيالية لتفزعها، عالم النساء ذلك كان يفتقد الشجاعة.

أتى أحد الأشقاء يومًا فلم يجد الطعام قد أُعدَّ بعد؛ فالتهبت جدران البيت وتحولت سكينته إلى قطعة فارة من جحيم، وقفت أتابع ما يحدث بشغف وكراهية، صرخت بوجهه، ولكن لساني انعقد فلم أستطع قول تلك الكلمات التي أصرخ بها دومًا عن حق المرأة في الحياة والمساواة والعيش بكرامة، كل ما فعلته هو صرخات انطلقت رغمًا عني، جعلت شقيقي ينسى الطعام وينسى كل شيء، ويركز انتباهه بتلك الصغيرة التي تصرخ بلا سبب، والتي كانت -كما سمعت- مثلًا متجسمًا للهدوء والسكينة.

ظللتُ أصرخ وأصرخ إلى أن اقتربت من فقدان الوعي، شعرت بأيد كثيرة تمتد إلي، وبأصوات كثيرة تسمي وتحوقل، وإحداهن تصيح قائلة: عاجبَكْ كده؟ أهي أختك اتلبست.

في الصباح وجدت أبي يجلس أمام فراشي في وجوم، ودخلت أمي همس له: "من ساعة اللي جرى وهي كده بتنفض وتتفزع".

أعجبني الاهتمام؛ فلم أجد بحياتي من يهتم بي ويسأل عما أريد وما لا أريد، قضيت جُلَّ حياتي شيئًا تافهًا لا يستحق الالتفات، أمة تابعة لوالده، متسلّطة أحيانًا ومريضة أحايين، سقتني ويل تحمل المسئولية في الطفولة، وذنب كل مأساة مرت بها عندما أدركت.

كم هو جميل يا جدتي أن تمنحيني تلك اللحظات التي لم يسبق لي المرور بها، كم هو رائع أن أتمدد بذلك الفراش، والجميع من حولي يتساءلون عما يجرى معي، ألمح دموعهم، وأستقي حنانًا لم يمنحه لي من قبل سوى ندم.

حتى الحنان لم يكن لي، كان لـــ"بسيمة"، ولكن يكفي أنني وجدت من يُشعرني باهتمام، آه يا أمي.. لم شربتُ كأس القهر الذي تجرعته من قبلي؟ فأصبحتُ كأرض عطشى غضبت عليها الأمطارَ وأشاحت الأنهار بوجهها عنها، كم مرضتُ من قبل ولم أجد من يمد إليَّ يده بقرص دواء، كم تألّمت ولم يسأل أحد لَمَ أتألم، كم قُتل بقلبي الأمل ولم يبعثه بقلبي حنان ولا حب.

كم أنت رائعة أيتها البسيمة، روعة تلك المشاعر التي حفرها العمر بملامحك، كم أشعر بالفخر أنني أعيشك، وكم أشعر بالإثارة لتلك الحياة المختلفة التي مُنحتْ لكِ فأهديتها لي في كرم كعادتك.

في المساء حضر عدد كبير من الناس يدقون الطبول، فيمنحون الواقع سحرًا أسطوريًّا، كلمات أغانيهم لم أفهمها؛ فاعتقدت أن لديهم لغة أخرى غير تلك التي نستخدمها، لو كنت أدرك ذلك المشهد البرَّاق من قبل، لما أضعت حياتي في دراسة الظواهر الطارئة على المجتمعات العربية، ولتخصصت في دراسة الفلكلوريات.

ما أن صادفَتْ أذنَيْ أمي اللحنَ الأول، حتى تجرَّدَتْ من غطاء رأسها، وأخذت تتمايل وترقص على إيقاعهم السريع، وعندها علمت من أين ورثت فتيات العائلة ذلك الشعر الأسود الكثيف، والذي يصفه نديم دائما بتاج الجنيات، لها جسد يخجل المرء من قراءة تفاصيله، فوَّارًا لَدِنًا رغم إنجابها لهذه القافلة، ورغم أنها كادت تصبح جدة.

رقصاتها المذبوحة أثارت خوفي؛ فانكمشت بمكاني إلى أن أتت إحداهن وطالبتني بنزول الساحة حتى يستريح بداخلي الأسياد، وجدتها فرصة مناسبة لإخراج كل تلك الطاقة المدفونة بين طيَّات ذاكرتي، وجدتني أرقص في خفة، ووجدت جسدي الضيل يسابق الأنغام الصاخبة أحيانًا وأحيانًا يعانقها، إلى أن نفدت طاقتي، ووجدت نفسي أصرخ في هستيرية، وتمدَّدتُ على الأرض نصف غائبة عن الوعي.

استيقظتُ صباحًا فلم أستطع مغادرة فراشي، جلستُ أحملق فيما حولي وقد تخلصت من جزء كبير من الضغط العصبي

الذي سيطر على شعوري في الفترة الماضية، أتت أمي تحمل دجاجة سوداء ذبحتها تحت قدميَّ، ثم خضَّبت بتلك الدماء يديَّ وجسدي، و لم أعترض كثيرًا على ما يُفعل بي؛ فلم يكن لدي شجاعة الاعتراض.

ذلك البيت كان يموج بالدفء والحب رغم قسوة جدرانه وصعوبة التعبير عن تلك المشاعر، ولكن ما أن تحيط بك تلك الجدران حتى تشعر بالأمان، تثق تمامًا أن هناك من يهتم بك، وعند الحاجة للحماية تجد من يحميك بكل ما أوتي من قوة، فُتنت بالرجل الكبير، كلماته القليلة كانت تسحرني وتمنحني ثقة مضاعفة بقدرته على حمايتي، وأنا التي طالما افتقدت من يضرب حولي سياج الحماية، ظللت طوال حياتي أفتقد الأمان، ما أن أجده حتى يفارقني.

طالت فترة التمارض، إلى أن سئمت تلك الوصفات التي كادت تصيبني بلوثة، إلى أن كانت تلك الليلة التي أيقظتني بها أمي وطالبتني بمرافقتها، قمت أجرجر جسدي خلفها وهي تمسك يدي في حرص بالغ، تطوي أقدامنا شوارع القرية التي أغرقها المطر بصعوبة بالغة، كانت أمي ترتجف، لا أدري إن كان تأثير البرد أم هو أثر خروجها بدون علم رجلها، ولكن ما أن اقتربنا منه حتى سكنت كل مخاوفها.

كان هناك منتصبًا في شموخ، تمنحنا ظلاله تأثيرًا خرافيًا بالرغبة في التواصل معه، خطوت إلى داخل المقام؛ فوجدت "السادنة" تنتظرنا وقد أشعلت شمعة أضاءت المكان والعالم من حولي وقلبي، استراحت كل مشاعري وعيناي تلتهمان تلك اللوحة التي سُجِّل عليها نسبه الشريف وبعض "كراماته".

أمسكت أمي عددًا من الشموع التي أحضرتها وكادت تشعلها، لولا أن أمسكت بها، وأخذت أضيئها، وكأن شعاع روحي هو من يفعل وليس الثقاب.

تحوَّل الجو من حولي إلى ضوء ناعم يشعل بداخلي الرغبة في التواصل مع الله، ركعت على الأرض وأنا أتمتم ببعض آيات القرآن، ثم أسندت رأسي للقبر، وبدون أن أجهد نفسي أغرقت الدموع وجهي وملابسي، كنت أبكي نهادًا وليست جدتي، أبكي قلبًا خُلِق ليتعذب، وكأن ذنبه الأوحد أنه استوطن صدري، أبكي عالمًا قذفت به فجعلت أصارع أمواج قهره وحدي، وأبكي حبًّا طغى عليَّ ولم يمنحني كبريائي فرصة التعبير عنه، وحبًّا قتلت كبريائي لأجله فسحقني تحت كبريائه.

ووجدتني أتمدد منهكة، وتلك المرأة تتمتم بآيات الرقية، ودموعي تأبى النضوب، إلى أن أغمضت عينيَّ ولم أشعر بنفسي سوى في اليوم التالي، أيقظتني زقزقة العصافير ونسمات هبت عليَّ تحمل ريح الجنة، قمت أتجول بالبيت فشممت رائحة اللبن

المغلي مخلوطًا بالشاي تعده أمي دائمًا لإفطار إخوتي، جلس أبي ومن حوله رسم إخواني دائرة، تهلّل وجهه عندما رآني، ونادى باسمي: "بسيمة"؛ فانطلقت رامية جسدي بين ذراعيه، كنت أحمل مشاعر كبيرة لذلك الرجل الذي أمسك بكوب كبير من اللبن وطالبني بمشاركته، فقبلت فورًا وأخذت أتناول إفطاري رغم نظرات أشقائي الساخطة، والذي عبر أحدهم عنها قائلًا: "يا آبه عمر ما واحدة من البنات قعدت على الأكل معانا، كده هتجرّأ البت دي، بعدين لما تتجوز تتفضح في البلد".

تفرّس أبي في وجهه قائلًا: "البت دي.. أختك.. بت صحيح.. بس واحدة قلب أبوها.. بت بميت راجل".

غلف الصمت دائرة المجلس، بينما جلست أتناول الطعام بنهم، حتى جاءت أمي وهي تقول: "شي لله يا أهل الله.. هَطَلَّع حاجة على روح سيدي أبو النصر وسيدي إبراهيم الدسوقي".

كانت ليلة يطغى عليها إحساس الخوف، يمنحني همسات الغيلان ويرسم بمخيلتي صرخات العنقاء، أصوات الريح تبعث بداخلي حكايات الأشباح، وصوت المطر يذبح بداخلي كل أمان منحه وجودي في ذلك البيت العامر بالرجال، استشعرتُ شيئًا ما يكاد يحدث فيتحول المطر المتساقط من حولنا إلى نيران.

في الصباح جاء "أحمد" ابن عمتي، وقد تحولت ملامحه الطيبة إلى كتلة من غضب، وقف أمام أبي وقد التقى حاجباه وقال: "خالي.. ليلة البارح راح عمي أبو السعود يبص على المواشي بتاعته في الغيط وما رجعش، رحنا ندورو عليه لقيناه مقتول، حد ضاربة بالنار".

قام أبي من مكانه وقد اعتلت وجهه غمائم الصدمة وقال: "حدش عرف مين اللي عملها؟"

رد أحمد: "لا يا خال".

التفت أبي إلى أشقائي قائلًا: "تعالوا ورايا".

أظلمت القرية، وتعالت بأرجائها صرخات الغربان ونشيج البوم، خرست أهازيج الركبان وتواترت دعوات الغضب، دفن القتيل و لم يُقِمْ له أبي العزاء فلجأ كل إلى بيته.

جلس أبي ومن حوله أشقائي تتحدث عيونهم لغة واحدة، هي لغة الانتقام، وانشغل الباقون في مراقبة ما يحدث، إلى أن تيقنوا من أن الفاعل أحد القتلة المأجورين، استأجرته زوجة شقيق "أبي السعود" لتتخلص منه، وليرث زوجها شقيقه الذي حرمه الوفاء لزوجته العاقر نعمة الإنجاب.

كان حادث القبض على "جوريَّة "مزلزِلًا، وكدأب العسكر - جهزوا لها موكبًا يزفُها كعروس إلى المركز، تفنَّن الأهالي في

الأغاني التي يحيُّون بها أول قاتلة، وقفتُ أشاهد من بعيد وأسير وراء السائرين، إلى أن أطبقت على ذراعي يد قوية، جذبتني في سرعة؛ فتمثلت بخيالي كل كوابيسي إلى أن انقشعت موجة الخوف برؤيتي لصاحب اليد، كان أحمد.. ابن عمي، ذلك الفتى اليافع الذي استأثر بثلثي فتنة الكون وثلاثة أرباع الرجولة، ربَّاه أبي بعد وفاة والده؛ فتشرَّبت ملامحه ذلك الجلال، واكتسبت تصرفاته لعنة القيادة.

ظللت أرتجف طوال الطريق وهو يوبخني على انضمامي لذلك القطيع، ومخالفة أمر أبي بعدم إظهار اهتمامنا بتلك القضية؛ حتى إذا انتقم لصديق حياته ابتعدت عنا الشبهات، سألت أحمد بعدما جرَّأني سلطان إغرائه: أحمد.. هو أبويا هيقتل جورية؟

فردَّ في جدية: جورية كفاية عليها اللي هتشوفه في المركز.

قلت والفضول يقطِّعني: أمال مين؟

نظر إليَّ وابتسم قائلًا: ما أعرفش.

ضربتُ الأرض بقدمي وصحتُ: لا عارف.. قولِّي ومش هقول لأبويا إنك قلت لي.

رد بصرامة: بت.. انتي هتسكتي والّلا أقول لأبوكي إنك طلعتي من غير ما تقوليله؟

قلت بسعادة: هو انت مش هتقوله؟

رد: مش قايل.. بس بطلي تتحشري في شئون الرجالة.

توالت الاجتماعات، وتعددت مجالس القمم، وتباعدت المدة، فتصوَّر الجميع أن أبي تقاعس عن ثأر صديقه الأقرب، وسارت الحياة عادية لا يكدر بحرها شيء.

كنت أجلس خلف البيت أُحصي بضجر عدد أشجار الليمون، وعدد أوراق الجوافة، حين جاءتني شقيقتي تطالبني بالذهاب معها للاستحمام بالنهر، ذهبنا إلى نفس المكان، وتمدَّدتُ فوق الماء على أمل أن يصغر النهر شيئًا فشيئًا ويتحول إلى ذلك المغطس الصغير الذي يغرق في رائحة الياسمين وأعود إلى حياتي، إلى نديم الذي اشتقت لأنفاسه التي تعبث بهدوء قلبي، أغمضت عينيَّ واستسلمت لحركة الماء علَّ نديم ينتشلني، وأخذت أنادي في خفوت: نديم.. نديم.. نديم... ولكنه لم يُجبْ.

كدتُ أموت وأنا أبحث عن ثغرة تعيدني لحياتي وبيتي ولزوجي، مرَّ الوقت وأنا أستجمع كل قواي وإرادتي؛ حتى أتخلص من ذلك الجسد الصغير الذي يعذبه عقل لا يتناسب معه، إلى أن تعالت النداءات من حولي: "بسيمة.. بت يا بسيمة ارجعي.. إنتِ رايحة فين؟! هتغرقي"..

نظرتُ إلى مصدر الأصوات؛ فوجدت مساحة كبيرة تفصلني عنهم، ووجدتني أحارب لأعتلي الماء فيدور بي، لا أفهم ما حدث، ولم أسمع سوى صرخات تدوي من بعيد، وترانيم غريبة تذكّرني بترانيم الجنّيات، حاولت الصراخ، ولكن صوتي أبى أن يخرج، وأدركت تمامًا أنني ألفظ أنفاسي الأخيرة، حاولت الاستمتاع بها ولكن طعم الماء طغى عليها، وتحوَّل العالم من حولي إلى لون الطّمْي، أمسكَتْ عدَّة أيد برأسي، فظننتها ملائكة الموت، وجدت من يرفعني فوق الماء، ويحملني إلى الشاطيء.. فتحت عينيَّ أخيرًا لأجد وجوهًا كثيرة تراصَّتْ كلوحة بشرية صُلبت على جدران الطبيعة، عانقَ أذناي صوت استطعت تمييزه وسط جحيم اللغط من حولي، كان صوت أحمد، لا أدري كيف جاء، ولم أسمع كل الكلمات، سمعت فقط موجات صوته تطمئنني، دثّرني بثوبه وحملني إلى البيت، وجلس مع أمي يشعلون النار لتدفئتي، كادت أمي تموت وهي تتوسل إليه ألا يخبر أبي بما حدث؛ حتى لا يقيم رجالنا مجزرة لا تضاهيها مذبحة المماليك.

أعجبني رده عليها؛ إذ وعدها بألّا يعلم بما حدث بشر، ثم وجَّه كلامه إليَّ قائلًا: "بقوا اتنين يا بسيمة.. والتالتة تابتة".

ظللت طوال الليل أرتجف، أبحث عن شيء يدفئني، ولم أجد سوى أحضان شقيقتي التي طوَّقتني، وقتها شعرت كم افتقدت ذراعي "نديم" وصدره الذي كان يشع لي الدفء الذي أمتصه وأعيده إليه وقد تحوَّل إلى جليد، مللت بسيمة، مللت حياتها

ووجهها، مللت حتى الرجل الكبير، لا شيء يدفعني لمواصلة الحياة سوى زيارات أحمد ومناوشاته، إحساسي الدائم بالرغبة في التمرد عليه، وعلى شهوته العارمة للحكم، ورغبتي الشديدة في كسر القيود، الآن أستطيع دفع كل لحظاتي في مقابل أن أعود لحياتي أنا رغم كآبتها؛ فهي على الرغم من كل شيء تتصف بلون الحقيقة.

أشعر بين الأشجار أنني قزمة، أشتهي حبة توت ولا أستطيع الوصول إليها، تنتابني الرغبة في الحصول على ما أفتقده، وتمنعني أدواتي الجسدية الصغيرة والهزيلة، توسَّلتُ إلى إحدى شقيقاتي فنَهَرَتْني، ذهبت إلى أمي المشغولة دائمًا فلم تهتم، حاولت تسلُّق الشجرة مرارًا فلم أوفَّق، انتابني الغيظ لعجزي عن الحصول عما أريد، أمسكت بعصا وحاولت ضرب الأغصان ولكن قصر قامتي أعجزني، حاولت تسلق الشجرة مرة أخيرة، وما أن بدأت حتى صرخت بي إحدى شقيقاتي، فتركت جسدي يتزلق باتجاه الأرض معلنًا حالة فشل جديدة، كانت طاقة العناد بداخلي أكبر من أن تُقْمع، والرغبة في إثبات الذات ونفي العجز البشري أكبر من أن يحتملها ذلك الجسد الصغير، ووجدتني أركض كمن يهرب من مطاردة كلب الجيران، جريت إلى غرفة أبي، واعتليت كرسيًّا لأصل إليها، وأمسكت بها بصعوبة، سقطتُ ولكنني حافظت عليها، أخذت أتأملها وأمسح بيدي ما علق بها من غبار التجاهل، كم هو مُرٌّ فعلًا ذلك الشعور، وقفت أمام الشجرة في تحدٍّ محتضنة بندقية

والدي، ثم سرعان ما صوبتها تجاه أحد الأغصان الممتلئة بثمار التوت المغرية، لا أدري كيف انطلقت تلك الرصاصات في سرعة مدهشة، أصابت جذع الغصن الذي مال بقسوة، واحتاج لرصاصة رحمة أخيرة منحتها له في سخاء.

اجتاحت النشوة خلايا إدراكي عندما سقط الغصن أمامي ساجدًا، وأخذت أدور حول نفسي في جزل، إلى أن أيقظت ذُعري أصوات متعالية مخيفة، توقفت محتضنة البندقية أحاول فهم ما يحدث، إلى أن أخرس صوت أبي كل صخب، تفحصني ثم استفسر عن سبب إطلاق تلك الرصاصات، ووجدت أن الصدق في هذه الحالة سيهلكني؛ لذا ارتجلت قائلة: يا آبه شفت صقر على نخلة التوت، وكت عايزه أصيده بس ما عرفتش.

ابتسم أبي وقال: بس إنتي نشانك ما بِيْخَيِّبْش يا بسيمة.

قلت: يا آبه ما هو كان بينط من حتة لحتة.

صرخ أحد أشقائي: هو مين ده اللي بينط من حتة لحتة؟ إنتي بتستهبلي يا بت إنتي؟ إنتي إيه خلّاكي تمدّي إيدك على البندقية دي؟

أشار إليه أبي فالتزم الصمت، ونقل الرجل الكبير بصره بين الشجرة والغصن الساجد وبيني، ثم أمر الجميع بالانصراف واستبقى أحمد، سرتُ خلفه إلى البيت ممزَّقة، شطر مني مذعور يرجو العفو، والشطر الثاني مكابر يملأه الغرور.

جلس أحمد بجوار أبي، بينما وقفت كشجرة تخلّت عنها الأوراق وتركتها للشتاء يضربها بعنف، ظل أبي صامتًا يتفحصني في بطء، بينما قال أحمد: حصل خير يا خال.. هي ما عدتش هتمسك البندقية دي تاني، مش كده يا بت؟

أومأتُ برأسي موافقة، فنظرات الجحيم التي أطلقها والدي تجاهي قطعت رجائي لكل عفو، وبعدما شابت مشاعر الخوف بداخلي، نطق أبي أخيرًا قائلًا: البندقية دي ما تمسكيهاش غير في حالتين اتنين.. لو حد هجم على الدار ومفيش رجالة يحموكي.. أو لما أموت أنا ومايبقالكيش حاكم.

صفعت كلماته كل محاولاتي للتجلُّد، وتركت" المندرة" إلى غرفتي وأنا أكاد أموت، تمنَّيتُ لو منح حقدي سببًا لكراهيته بإيذائي جسديًّا، لا أن يتركني هكذا أصارع أمواج الإحساس بالذنب.. وددت لو فعل معي مثلما يفعل بشقيقاتي عندما يفاجئ إحداهن وهي تقضي إحدى الحوائج فوق سطح البيت أو أمامه، لم يسمح لإحداهن بالخروج أبدًا؛ لذا كن يخرجن بدون أن يعلم، كنا نجد في المخاطرة بالخروج إلى النهر أو إلى السوق متعة نستعين بها على ملل أقدارنا.

مرت أيام كثيرة لم أر بها وجهه؛ ففعلتي باعتني ثوبًا من الخجل يكسوني كلما فكرت بالذهاب إليه، ولكنني سئمت أن أكون معلقة لا مرضيًّا عنها ولا مغضوبًا عليها، فقررت حسم الموقف، تقدمت إلى ساحة البيت، فوجدت باب "المندرة"

موارِبًا تفوح منه رائحة شيء غريب، أصوات خافتة تمتزج برائحة التبغ وطعم الشاي، اقتربت من الباب وقد ذبحني الفضول؛ فتنامى إلى مسامعي صوت أبي يقول: "فهمتوا هتعملوا إيه؟"

رد الجميع: إيوه.

أكمل قائلًا: لو رصاصة واحدة خلفته.. يا هتيجي فيَّ آنا، يا هتيجي في أحمد ابن عمتكم، إذا جت الرصاصة في هيبقى ربنا ريَّحكم.. أما لو خَلَفت وجت في ابن عمتكم.. هعلقكم على النخل اللي ورا الدار، وهقطَّع من جِتَتْكُم بالحتة.. اللي ما يقدرش يقول من دلوقتي.

رد الجميع في صوت واحد: هنقدروا إن شاء الله.

رد: إيوه كده..دلوقتي بقى قوم يا أحمد إدبح حولي وقطَّعه، واديه لمراة خالك تطبخه.. إكرام الضيف واجب يا ابني.

كدت أتراجع خطوة حتى أعود إلى غرفتي، لولا أن فتح الباب فجأة وظهر أمامي أحمد الذي فاجأه وجودي، ولكنه خشي أن يراني أحد؛ فدفعني بعيدًا وأمسك بيدي إلى أن ابتعدنا، وقال في غضب: وبعدهالك بقى؟ هو مفيش في دار خالي غيرك والَّلا إيه يا بت إنتي؟

قلت في انفعال: أنا كت عملت حاجة؟ أنا كت رايحة لأبويا أصالحه لقيتك في وشّي.

رد: وسمعتي إيه وإنتي واقفة؟

قلت في غضب: ما سمعتش حاجة.

رد ساخرًا: خالص؟!

فارقتني الدموع رغمًا عني وقلت: إنت عايز مني آه؟ هو أنا كل ما اطلع من أوضتي ألاقيك واقف لي؟!

قال بهدوء: طب وبتعيطي ليه؟ما تزهقيش وأنا بكرة هصالحك على أبوكي.

قلت بسرعة: والنبي صحيح؟

قال: إيوه.. بس ابقي بطلي طفاسة.. لما تعوزي توت إبقي قوليلي وأنا أطلع أجيبك.. مش هتعملي زي قَتَّالِين القُتَلا وتضربي النخلة بالنار.

قلت في عناد: ماكُنْتش بضرب النخلة، كُت بضرب الصقر.

قال في نفاد صبر: بت انتي بطلي تستعبطيني.. لعلمك ما عدِّتش على خالي.. بس فَوِّتهالِك.. روحي العبي والَّلا اتعَلّميلك حاجة تنفعك.

-أتعَلّم آه؟

-اتعلمي تطبخي، تحلبي البهايم، تروَّقي الدار.. بَدَل ما بتتعلمي ضرب النار والعوم.. ناقص بس تتعلمي ركوب الخيل وتبقي ولد.

صمتُّ قليلًا أفكر في وقع كلماته، إن الإمساك بالبندقية بعد تحديد الهدف ثم إصابته متعة، والاستسلام لدغدغة الماء ومحاولة قهر المسافات وقهر الخوف المتغلغل في أنحاء الذات أيضًا متعة، ولكنني لم أختبر من قبل ركوب الخيل، في الحقيقة كنت أخشى كل الحيوانات، وتملأني الدهشة عندما أجد نفسي وقد اعتليت"مَدَاوِد" البقر،وأخذت أسير أو ألعب في طعام الحيوانات دون خوف حقيقي، كانت بسيمة تقودني حيث مراتع المتعة التي لم أشعرها يومًا، وكأنها تعتذر لي عن حياة منحتها لي ابنتها فتسبَّبت في شقائي.

أثارت خيال الطفلة بداخلي فكرة ركوب الخيل، ووجدتها تنطوي على أكبر التحديات، فالحصان حيوان شديد القوة، شديد الذكاء، قهره والتغلب عليه يمثل انتصاري على كل ما يمثله من جنس الذكور، ولقد حبَّب إليَّ ندمي فعل القهر.

سيطرت الفكرة علي عقلي لدرجة أنني لم أعد أفكِّر في سواها، امتطيت ما تبقى من شجاعتي وذهبت إلى أحمد؛ فوجدته مشغولًا بتقطيع أجزاء الخروف، وقفتُ بعيدًا عنه؛ حتى إن استنكر الفكرة وقذفني بالساطور، سارعت بالاختفاء من أمامه.

للمرة الأولى أراقب ملامحه، التي بالرغم من رقتها تعكس شخصية جبارة نفث بها أبي جُلَّ تجاربه، وبقي يراقب تطوراتها على مهل.. همست إليه قائلة: أحمد..

ابتسم قائلًا: يا نعم..

قلت: أقولك حاجة وما تزَعَّقْليش؟

تنفس بعمق ثم قال: قولي يا بسيمة.

قلت: والنبي.. سايقة عليك سيدي أبو النصر وسيدي إبراهيم الدسوقي.. علّمني ركوب الأحصنة.

سقطت الكلمات على رأسه متتابعه؛ فصمت طويلًا وهو يتفحصني، فشعرتُ بالتضاؤل أكثر فأكثر، ثم قال: أعَلّمِك يا بسيمة.

كدتُ أصرخ من فرط سعادتي، ثم قلت: إمتى؟

قال: لما تتعلّمي شغل الدار كله، وأمك تقولّلي إنك بقيتي ست بيت شاطرة.

قلت: أنا ما بحبش شغل الدار، وبروح كمان كُتّاب الشيخ عبد الحميد.

ترك ما بيده واقترب أكثر قائلًا: إنتي عارفاني يا بت خالي.. ما برجعش في كلمتي.. اتشطّري في الشغل.. ولما أعرف إنك بقيتي شاطرة في الشغل هعلمك.

تركته وقد تباعد الأمل عني، وشعرت بغضب يكاد يقتلني، فأخذت أضرب كل ما في طريقي، إلى أن لمحت أبي من بعيد

يستقبل أحد الرجال في حفاوة ويرافقه إلى الداخل؛ فتواريت حتى لا يراني.

ظللتُ طوال اليوم تعيسة لموقف أحمد المعادي لتروايّ، وقررت أن أفعلها بدون أحمد؛ فلم أَعْتَدْ أن يمد إليَّ رجل جسور يد المساعدة.

كنت نائمة عندما أفقتُ مذعورة على أصوات طلقات نارية تعلن عن مذبحة جديدة في القرية التي اشتهر أهلها بالدم الحار، وأنهم لا ينامون على مذلُة ولو كان الثمن هو الحياة، سرعان ما عمَّ الصراخ أرجاء القرية؛ فخرجنا جميعًا حاسرات الرأس حافيات نستطلع ما حدث، وإذا بأحد الجيران يصرخ فينا قائلًا: فيه ناس ضربوا نار على أبوكم وهو رايح يوصل ضيفه على الزراعية.

عندها اشتعل العالم من حولي، ولم يخفف وطأة النيران سوى مرأى أبي آتيًا من بعيد مستندًا إلى ذراع أحمد، هنا تذكرت حوار الصباح، وفهمت ما حدث، فدخلت إلى غرفتي وقد رفع الغضب حرارة وجهي؛ إذ أن فعل القتل رغم كونه حقًّا لأهل القتيل؛ إلا أننا لا نعيش وِفْق شريعة الغاب.

تصاعدت السخونة برأسي؛ فوضعت رأسي بأحد الآنية التي وضعتها أمي لتخزين الماء إلى أن كاد الماء يقتلني... رفعت

رأسي فجأة فرأيت نديم، تلفتُّ حولي حتى أتأكد من عدم وجود أحد، فلم أجد سواه جالسًا إلى جانب المغطس ممسكًا بيدي ويطالبني بالخروج.

أخذتُ أنظر حولي في دهشة فلا أدري كيف أتيت إلى هنا بغته بعد أن أعيتني المحاولات، وقفت أتأمل جسدي الفارع الطول وملامحي التي فقدتها لبرهة، ثم استعدت كل شيء فجأة.. جسدي وملامحي وحياتي!

شعرتُ بخيبة الأمل، ولكنني حاولت التجلُّد، ارتديت ملابسي، وأنِستُ لألواني المفضلة التي استبدلتها بسيمة بألوانها الغريبة، جلستُ أمام نديم على المائدة التي أضاءت جوانبها الشموع، وازدانت بأطعمتي المفضلة التي لا أذكر أنني أعددتها، فرحتُ عندما تذكرت أنني سيدة منزل بارعة، أستطيع القيام بكل أعمال المنزل في سرعة ومهارة، وكدت أترك المائدة وأجرى لأخبر أحمد أنني تعلمت كل شيء حتى يعلمني ركوب الخيل!!!

كان حُلمًا.. ذلك هو التفسير المنطقي الوحيد لما حدث، أثَّرَ فيَّ وعاشه حرماني، ولكنه - في النهاية - مجرد حلم انقشع فور أيقظني نديم، ووجدت بداخلي شوقًا كبيرًا لِعَيْشِ قصة حب؛ فنظرت إليه عبر المائدة وقلت: نديم.. أحبك.

نظر إليَّ نديم وقد رسمت ملامحه علامة تعجب، وقال: رباه.. إنها أجمل كلمة "أحبك" سمعتها منذ التقينا.. أنا أيضًا أشعر الليلة أنني أحبك أكثر.

بدَّد حديث نديم شعوري بالغربة قليلًا، فقد غادرتني للتو حياة صاخبة ومنزل يموج بالأحداث، فوجدت نفسي وحيدة على مائدة لا يتشارك بها سوى اثنان.

لدي رغبة في الحكي، ولكن أخشى ألا يفهمني، كدت أصرخ، ولكنني تمالكت نفسي؛ فأنا أقف بين عالمين لا أنتمي لأحدهما، عالم بسيمة الذي سيطر عليَّ ومنح حياتي لون المغامرة، وعالم نديم المليء بالحب أحيانًا والوجع أحايين.

وضعني في فراشي كطفلة، ومنحني حبة دواء، وطلب مني أن أستريح، نظرت إليه بِيُتْمٍ وأخبرته أنني بحاجة لمن يرافقني؛ لأنني أشعر بالخوف، تبًّا لبسيمة! إنني لم أتذلل من قبل لرجل، ولكن تفكيرها الطفولي طغى على تفكيري فحولتني إلى طفلة كبيرة.

نديـــم

لم أعد أحتمل.. سئمت.. مللت.. قتلني الضجر!

تلك كانت أشهر كلماتي في الأشهر القليلة الفائتة، لم أكن أدرك أنني أقتلها.. الآن أصبحت أكره كلماتي وهي جزء مني، بل صرت أكره ذاتي التي ما أن أَفْرَطْتُ في عشقها حتى آذيتُ حبيبتي، كنت أراقبها تتألم وتكتم أوجاعها في كبرياء، ولم يحرك ذلك بداخلي نخوة الأحبة وروح الرجال، إلى أن شعرت أنني أكاد أفقدها.. فمنذ عدت من سفري وهي تحاول التمرد عليَّ لولا حب أسكنته قلبها ويشفع لي أحيانًا، كنت أحاول قمع ذلك التمرد بابتسامة اعتدت ألا تقاومها وكنت أنجح.

ذلك اليوم استيقظت مبكرًا لأذهب إلى الجامعة بينما تكاسلت هي.. قررت قضاء يومها مع الأصدقاء، انشغلت بالمحاضرات وبالاجتماعات،وأخيرًا دخلت مكتبي لأستريح قليلًا قبل عودتي للبيت،رن هاتفي فأجبت، كان الدكتور سامي شقيق نهاد والذي فضل الحياة بأميركا، أخبرني أنه يتصل بها منذ الصباح ولا تجيب، فوعدته بالاتصال به فور عودتي للبيت؛ فقد كانت تمارس على هاتفها سياسة القمع، فتخرس صوته حتى لا تجيب على أحد عندما يعتلّ مزاجها.

عدت إلى البيت، وضعت معطفي، وألقيت بمفاتيحي، ثم ناديت: نهاد.. نهاد.. نهاد... فلم يجبني أحد، بحثت عنها في

غرف البيت فلم أجدها، نما إلى سمعي موسيقى هادئة تنبعث من الحمام، ذهبت إلى هناك، وما إن فتحت الباب حتى تحقّق أسوأ كوابيسي، كان الحمَّام يفيض بالماء، وبالمغطس استلقت نهاد، وقد غطى الماء جسدها ورأسها، أسرعتُ إليها، رفعت رأسها فوق الماء وقد اكتسبت ملامحها لون الثلج، طمأنتني أنفاسها الضعيفة، فحاولت منحها قبلة الحياة لأعيدها إليّ مرة ثانية، فتحت عيناها وهمست بعدة كلمات غير مفهومة، ثم غابت عن الوعي.

في المستشفى شعرت بأن جزءًا من قلبي قد انفصل عني، أبحث عنه حتى أعيده إلى مكانه فلا أستطيع، أخبرني الطبيب أنها تحتاج وقتًا لتتعافى، ظللت أترقب ذلك التعافي، أجلس أمامها لساعات انتظر أن تنطق كلمة فتنهار كل تمنياتي، لا أدري ما أصابها، ولم هي مفتوحة العينين ولا تراني، أناديها فترمش عيناها ولا تنطق، فقضيت أيامي أستشير الأطباء واستفتي قلبي ولا أصل لنتيجة.

أريد زوجتي.. حبيبتي.. صديقتي.. حب حياتي.. صرخت بها بعد أن تقطّعت سبل رجائي فلم تحرك كلماتي ما خمد، فدفنت رأسي بصدرها وجلست أبكي، الأطباء يؤكدون سلامتها، ولا يجدون تفسيرًا لذلك الصمت الذي اعتراها.

كنت أحاول التجلد لعله يفيدني بذلك الموقف العصيب، أستنجد بالصبر عسى أن يرحمني من ذلك الكابوس الذي أعيش تفاصيله، أين تلك الفوَّارة التي تثير بداخل كل من يحادثها زوابع التمرد؟

بَدَأْ تنتبه لوجودي، أستعيد من ذاكرتي حكايا جدتي وأمي وأسردها أمامها ليمنحني وجهها الشمعي في نهاية القصة ابتسامة، أطير لحصولي عليها.

"ندم...أحبك"

منحتني هذه الكلمة بضع مرات، لكنها هذه المرة كانت مختلفة، كانت حروفها تحمل عبق معاناة طويلة انتهت نهاية سعيدة، كدت أستنطقها مرة ثانية لتعيدها، ولكنني خشيت أن تضغط كلماتي على أعصابها فتنهار مرة ثانية، كانت المرة الأولى التي تنطق اسمي منذ أسابيع، المرة الأولى التي أستمع لصوتها يعبر عن مشاعر حب ظننت يومًا أن تصرفاتي الأخيرة صبغتها بلون المجاملة.

أكسبها مرضها الأخير نكهة الضعف، فتحولت ملامحها لتفاصيل طفولية بريئة، كانت تفرح كطفلة تغضب وتلهو كالطفلة، أحتضنها لأذكِّرها بأن بداخلي وحش يكاد ينهشها فتأوى إلى ضلوعي وتنام، متجاهلة حجم الخسائر التي تتكبَّدها

مشاعري لحظة أراها مستسلمة لسلطان النوم ومتناسية سلطان الحب.. لم تعد تجمعنا ليالي الحب منذ اخترت طواعية أن أرحمها من مناوشاتي، بعد أن أصبحت لا تفرق بيني وبين شقيقها.. أغمضَتْ عينيها مستسلمة لنشوة يهبها لها شوقي الغامر الذي استسلم لليال طويلة، وأبى هذه الليلة أن يرفع راياته البيضاء، هَمَسَتْ: "جواد..كم اشتقت إليك".

ثلّجَتْ لحظتها مشاعري، وتحوَّل كم النيران الذي يحركني إلى رماد، ترى من هو جواد.. من؟.. من؟!!!!!

شعرتُ كأنني نقطة التقاء البحر بالسماء، نقطة خيالية وغير ممكنة، نقطة اللاشيء، اللاقيمة وارتميت بجوارها فاقد الحس والعقل، ترتجف أوصالي، وتتجمد بعروقي سيول الدماء، لم أسأل يومًا عن تاريخ زوجتي؛ فهي نقية كماء المطر، لم أتصوَّر يومًا أن هناك من سبقني إليها ولو بخياله، إذن.. من هو جواد؟

أحاول إعادة بناء سدود الثقة؛ فتحولها زلازل الشك، أيها الجحيم أخبرني من هو جواد!.. يقتلني ذراعها الذي يطوقني وجسدها الذي يحتويني، ما زالت مغمضة العينين، ربما ما زالت تستمتع بجوادها الذي تشتاق إليه في وجودي، أكاد أموت.. لا أستطيع مشاركتها نفس الفراش ونفس الغرفة وذات العالم وهي تفكر به وتتمناه عيانًا أمامي.. أود أن أسألها عمن يكون؛ فلم

يسبق لخيالي أن ألهمها لحظة، فقد كانت لي النهر الجاري الذي يزيل دنس مغامراتي، وأنا الذي أُدنِّس ماء المطر.

ربّاه! حتى الجرأة تأبى مرافقتي كي أسألها، أتجرَّد من كل شيء سوى من شكي، وأضع رأسي تحت الماء الدافيء كي أغتسل وأطهِّر قلبي من ذلك الشك المعيب، رباه!.. قوية هي خطيئة الشك، لا تمحوها زخات الماء ولا دفقات حي، أندسُّ بفراشي أراقب شعرها المتماوج الذي يغطي ذراعيها والوسادة وجسدها القاتل، ترى هل منحت جسدها لآخر، وهي التي ما زالت ترتجف خجلًا إذا قبَّلتها بعد مرور كل تلك السنوات؟

لا.. إنها بريئة، نقية، تقية، ورعة، لم تمنح نفسها من قبل لسواي ولن تفعلها، تعشقني وتعكس عيونها رَجْعَ المحبة، إنها زوجتي التي تحمَّلت نزواتي وغروري، وصبغت بالصبر أيامها حتى أعود إليها.. إنها قدِّيستي.. حياتي.. قمري.. وسحب حبي، سأطرح هذا الشك عني وأهديها باقة من زهور ثقتي.. ووجدت نفسي أوقظها.. هاد.. حبيبتي.. ملاكي.. ردت بلا وعي: نعم نديم؟

سألتها: من هو جواد؟

فنامت وغاصت في أمواج النوم.

أحمد

بدأتُ في العودة لحياتي مرة ثانية، وتخلّصت من كابوس بسيمة، تناسيت شعورًا خفيًّا بافتقادها وشوقًا لحيالها كاد يفتت ضلوعي، ولكنني تجاهلت كل تلك المشاعر، وآليت على نفسي الاهتمام بحياتي التي لا أملك سواها، كرّست كل ما أمتلك لإسعاد نديم، والذي استقبل تلك المحاولات بالترحاب، أقضي اليوم معه بالجامعة أدرّس لطلابي، وبعد المحاضرات أتحاور معهم وأعقد الجلسات التي ملأت عليَّ حياتي، أما المساء فكنت أمزقه بين السهر برفقة نديم وبين النوم.

ذات يوم أنهيت عملي، وعندما هممت بمفارقة الحرم الجامعي سمعت إحداهن تنادي: "بسيمة.. بسيمة"...

التفتُّ خلفي بغتة لأجد نفسي بمكان آخر آلفه وكأنني عشت به طوال حياتي، طالبتني بأن أحمل معها قفصًا عجَّ بالطيور، حملت القفص على رأسي بينما سارت هي بجواري تُوَلْوِلُ وتندب حظًّا عاثرًا رافقها منذ تزوجت "منجي"، الذي آذاها إلى أن هجرته وأتت تستنجد بأبي.

أوّاه كم افتقدته! دخلت إلى مجلسه وقد أشرق به البيت، كدت أرمي نفسي بين ذراعيه ولكنني تماسكت، أخبرته أن قريبتنا تود لقاءه؛ فقام من مكانه وأراح ذراعه على كتفي وسار معي، و ما إن رأته السيدة حتى صرخت: الحقني يا آبه الحاج.

ردَّ عليها بوقار: خير يا باتعة.

قالت: اللي يجيله ويحط عليه "منجي".. ضربني وطردني من الدار.. وجرى ورايا بالفاس.. كان عايز يموتني أنا والبت!

رد أبي بتأثر: لا حول ولا قوة إلا بالله.. ليه؟! هو إيه اللي حصل؟

اصفرَّ وجه " باتعة"، وتأتأت، ثم لاذت بالصمت، وعبَّرت دموعها الغزيرة عن مدى معاناتها مع ذلك الرجل، فقام أبي ووعدها بأن يقهر تلك المشكلة.

في المساء جلست باتعة تحكي ما يفعله زوجها ليثير جنونها، إلى أن يئست من صلاح أحواله وقررت دس السم له في كوب الشاي، بُهتت أمي وطالبتها بألا تفكر في ذلك ثانية، إلا أنها أقرَّت بأن سبب الخلاف الأخير هو اكتشاف الرجل أن رائحة الشاي تخالطها رائحة غريبة، وما أن ميَّز تلك الرائحة حتى طاردها بالفأس متمنيًا أن يقضي عليها.

خيَّم الصمت على شفاهنا، وجلست أنظر إليها وهي تبكي وتولول، فتارة تعدد مناقب "منجي" وتصيح باكية: "يا ملبِّسني الستانيه يا منجي"، وتارة أخرى تحصي مساوءه وتصرخ بأمي: "إدعي على منجي يموت يا عمتي".

لم أستطع الحكم على هذه المرأة؛ فخبرتي في القضاء محدودة، إن كنت قاضية ترى بم سأحاكمها؟ هل أقدِّر لها الموت، أم أكافئ تخلصها من الظلم وقوتها في تحرير كاهلها من تلك السلطة القاتلة فأمنحها البراءة؟

حلَّ الرجل الكبير القضية، ولا أعلم كيف أقنع ذلك "المنجي" باقتناء تلك "الباتعة" ثانية،ولا كيف سيأمن ذلك الزوج أن ينام بين ذراعيها وهو يعلم أنها تفكر بإنهاء حياته.. كانت هذه الأزمة تؤرقني، فذهبت إلى أبي، ابتسم عندما عانقته نظراتي وطالبني بالجلوس، قبَّلت يده وجلست تحت قدميه،و لم أجد بداية أفتتح بها ما أريد فآثرت الصمت، كان يؤلمني أن تؤذَى امرأة إلى درجة أن تفكر بالقتل، وأتعجَّب كيف يمكن لرجل مثله أن يتوسَّط لإعادتها،كدت أتجرَّأ لولا أن دخل أحد أشقائي يطالب أبي بالذهاب إلى عمدة القرية الشيخ "محمد المنصور".

وقفت أمام المرآة أستعرض ملامحي وجسدي الجديد، أحدِّث وجه بسيمة وعقل نهاد، وأقلِّب في دفاتر القوانين، أبحث عن قانون يلفق بينهما صلحًا أدري أنه لن يصمد أمام جنون وطيش بسيمة، كنت أفضِّل بسيمة الطفلة، كانت الأرض بالنسبة إليها ملعبًا تلهو به، أما الآن فقد نحَتَها الزمن فخرجت من تحت يده كأجمل ما يكون، أبدع في رسم تفاصيلها حتى

إنني أصبحت أفخر بأنني أحمل تلك التفاصيل، تمنيت أن تدوم معي ملامحها شديدة الإغراء، فمن تملك ذلك الجمال البديع والشجاعة وكل تلك المقومات تستطيع أن تتغلب على أقوى الجيوش، كسيراميس التي أنقذت جيشها بمكر ودهاء الأنثى.

أشتاق دومًا لتلك البقعة؛ حيث النهر، وحيث تسبح الجميلات، فطلبت من إحدى شقيقاتي مرافقتي؛ فتخفينا حتى لا تُصْلَب كلتانا على جذوع الشجر إذا علم أبي، استسلمت للماء وأخذت أفكر بنديم، وبحياتي التي لا أدري كيف وصلت إلى ذلك الحد من عدم الاتزان، لا أعلم من أنا، ولا أدري إن كنتُ جدتي أو كنتُ أنا.. تتغير ملامحي وثيابي ولهجتي وطباعي ويتغير قلبي، لا أدري إن كنت ورثت مرض أمي، والتي كانت تقسم أنها تعيش بين الملائكة والأنبياء، أو إن كان ما أعيشه حقيقيًّا، أتمزَّق بين الواقع وبين الخيال ولا أدري بأيهما أعيش، الآن أفكر بنديم.. تُرى هل تفكر بسيمة هي الأخرى به؟ وعندما تفكر بسيمة برجل، ترى هل أُغرم به أنا الأخرى؟ ترى من أنا الآن؟.. من أنا؟

كدت أموت عندما تصورت أن هناك من تفكر بزوجي، ترى من منا تكون بين ذراعي نديم عندما يفكر باحتضاني؟.. شعرت بالحرارة تتصاعد إلى رأسي عندما برق بذهني ذلك الخاطر؛ فغمست وجهي بالماء وقررت ألا أفكر بذلك الأمر،

فقد أحتمل أي شيء إلا الغيرة، جففت ملابسي وطالبت شقيقتي بالعودة، ولكنها تباطأت فقررت العودة وحدي، سرت في طرقات القرية الجانبية المؤدية إلى البيت وأنا أتأمل ما حولي في صمت، وقد سترت وجهي بطرحتي حتى لا يعرفني أحد، وقبل أن أصل سمعت من يناديني: "بسيمة.. بت يا بسيمة"، التفت بغتة فوجدته "أحمد"، وقد طالت قامته أكثر، واتسعت مساحة صدره حتى إنني كدت أرتمي عليه، تسمرت وأنا أتأمل ملامحه، أما هو فقد تطاير الشرر من عينيه وقال في غِلظة: كُنْتِي فين يا بت؟

أفقتُ من سحر رؤيته وقلت: وإنت مالك؟

ضغط على الكلمات قائلًا: إنتي بتقلّي أدبك عليَّ يا بت؟

قلت رغمًا عني: ليه يا آبه؟ قلت لك هات بوسة؟

افترَّ ثغره عن ابتسامة وقال: الله يقطعك يا بعيدة، مالك يا بت، ما تتعدلي، ما لك متشقلبة ليه زي الزمن؟

قلت: ما ليش.. بس ما بحبش اللي يقعد يقولّي كُنْتِي فين وراجعة منين.

رد وهو يغمز بإحدى عينيه، فطاشت الغمزة لتصيب قلبي: بلاش يا بُسم.. أنا رايح لخالي دلوقتي هقول له.. ويبقى هو بقى اللي يسألك.. واللا هو كمان مالوش حق يسأل الشملولة رايحة فين وجاية منين؟

غارَ قلبي، ولكنني تماسكت قائلة: أنا ما بعملش حاجة غلط.. عايز تقول له إجري.. آجي أوصلك؟

قال: لا عيب.. ده واجب عليّ.

تركني وذهب، فاستسلمتُ لشلّالات الرعب التي اجتاحت دمائي، إن نفّذ أحمد تهديده سيقذف بي إلى الجحيم بدم بارد، وإن لم يفعل فسيعدها ذلة يستخدمها ضدي بأي وقت.. عدتُ إلى البيت وأنا أرتجف، وما إن وصلت شقيقتي حتى استنجدتُ بها، عَرَضَتْ أن تذهب إلى أحمد وتناشده بألا يفعلها حتى لا ينفذ أبي مجزرة تكون بطلتها أنا.. كانت طريقة فجة ولكننا لم نجد حلًّا آخر.

تحت ستر الظلام تسللت ظريفة إلى بيت عمتي والتقت بأحمد، لكنها عادت مكسورة القلب عندما فاجأها بقوله أنه لن يخبر أبي فهو لا يتحمل إيذائي بنفسه؛ لذا سيدع هذه المهمة لمن يليق بها وهي عمتي"والدته".

"أكرهك.. أكرهك.. فقط أكرهك"...

ظللتُ أرددها وقد شُطِرت ذاتي إلى قسمين، قسم يحبه قدر الحياة وقسم يكرهه قدرَ الموت، ولكن وقتها طغى قسم الكراهية؛ فمن يقدر على الإيذاء لا يستحق هبة الحب، إن أخبر أبي سأمزق نور عينيّ إن فكر في رؤيته، سأتخلص من

قالت: بصي يا أختي.. الفرن فيه سكان جن، لما تيجي تولّعي قولي: "خدوا بالكم النار جاايالكم، الوالدة تشيل ولدها، والمكسَّحة تمشي على مهلها".. عشان يسيبوا لنا الفرن نولعوه بدل ما نئذوا حد فيهم ويبقى حرام علينا.

بعد أذان المغرب دخلت ظريفة الغرفة وهي ترتجف، جلست أمامي وقد منحها الصمت لون الرعب فاصفر وجهها وبهتت ملامحها، قالت وهي تكاد تموت: بسيمة يا أختي.. عمتك آمنة بره.

سقط قلبي في بئر عميق حفره ذعري وأخلص في حفره، ووجدت خلاياي تتلون بطعم الموت، ترتجف أوردتي وتعلن نبضاتي حالة انتحار، جلست أنتظر حكم الذبح بصبر نفد منذ قرون.

وضعت رأسي تحت الوسادة وقد تدثرت حتى شعرت كأنني دخلت قبري حية، تمنيت لو كنت نعامة أدفن رأسي تحت الرمال حتى أتظاهر بأن ما حدث لم يحدث، تمنيت لو أنني كنت الرمال نفسها تطأني قدم أبي ولا يتذكر أنه مر بي يومًا، سحقًا للخوف، الآن علمت لم يحكم الطغاة شعوبهم بالخوف.

غادرت عمتي الشريرة وغادرت معها روحي وما تبقّى من أنفاسي، بعد قليل أتتني إحدى شقيقاتي وطالبتني بالذهاب إلى أبي، شعرت بأن صدري قد خلا من القلب، ذهبت إليه يسبقني

الرجاء في أن أموت قبل أن أصل إليه، دخلت مجلسه وقد تجمدت كل أوردتي، وتحول رأسي إلى جحيم.

عبس عندما رآني؛ فطاشت نظراتي حتى لا تلتقي به، ووقفت أمامه أفتقد كل مشاعر الثقة، طالبني بالجلوس فارتميت أمامه، فقال في هدوء: بصي يا بسيمة يا بِتّي.. إنتي كبرتي دلوقتي.. تركته يتحدَّث و لم أفقه كلمة، إلى أن قال: عمتك جاتني الليلة كانت عايزة... وصمت

خرست نبضاتي ثم أكمل: عمتك عايزة تاخدك لأحمد ابنها...

قلت بلا وعي: تاخدني يعني آه؟

قال: عايزة تجوزك لأحمد.

قلت وقد تمكَّنت مني المفاجأة: أحمد؟

رد: أيوه أحمد.. وأنا مِستَخيَّرْهولِك يا بِتّي.. بس برضه مش هرد عليها غير لما توافقي.

كدتُ أرفض حتى أرد له ما فعل بي، ولكنني صمتُّ أستمرئ ما يحدث بعد أن تنفَّستُ الصُّعَداء، طال صمتي؛ فابتسم الرجل الكبير وقال في سعادة: على بركة الله.. مبروك يا بسيمة.

لا أدري إن كانت لحظتها بسيمة هي من صمتت أم أنا، تُرى من كنت لحظتها نهاد أم بسيمة؟ ترى هل أغير القدر؟ لا أدري ما يحدث، ولكنني أفقت على صوت أحد أشقائي يعترض قائلًا: يا آبه لا مؤاخذة يعني انت هتدي البت لعمتي؟

رد بجلال: إيوه، فيها إيه دي؟

أكمل: بس يا آبه عمتي دي شرّانية ووش هم.. تجلب الغلت من بلاده.. هتقهر البت؟

رد في ثقة: بس أحمد راجل هيحمي مراته، أنا عارفُه.

ليلتها لم يطرق النوم أجفاني، جلست في فراشي طوال الليل.. أبتسم أحيانا لسعادتي بالحصول على أحمد، إذن... من التي خُطِبَت للتوّ لأحمد؟ وأجبت نفسي: بسيمة طبعًا! إذن لِمَ أفرح أنا؟ هل يجوز أن أُخْطَبَ لرجل وأنا متزوجة من آخر؟! ولكن بسيمة غير متزوجة! ولكن أنا في النهاية لست بسيمة.. أنا نهاد! ولكن ملامحي ملامح بسيمة وجسدي جسد بسيمة، أنا لا أحمل ذكريات بسيمة! أنا أحمل ذكريات نهاد! ومشاعري تتحكم بها نهاد، وتؤججها نزوات بسيمة!

ونديم المسكين الآن زوج من؟ كيف أفرّق بين مشاعر نهاد وبسيمة؟ ماذا إن تزوَّجت أحمد.. هل أكون زوجة لرجلين؟ ماذا إن علم أحمد أنني لست هي، وعلم نديم أنني هي؟.. ترى

هل سيسامحني أحمد عندما يعلم أنني متزوجة من آخر، وهل سيتحمل ندمه إن علم أن لي زوجًا غيره؟

من سيحسم ذلك الصراع هو أنا! ولكنني ممزقة إلى قسمين، كل قسم ينجذب إلى اتجاه مخالف، فأتقطّع بين ما يريده كل قسم، آه.. ليتني أعود لحياتي!

ظللت طوال نهار اليوم التالي نائمة لا أستطيع الصحو، لم أُفق سوى عندما سمعت صوت أحمد، له صوت تعشقه خلجاتي ويهنأ قلبي لسماعه، كان الصوت عاليًا لدرجة أنني سمعته بدون عناء، كانوا يتحدثون عن اقتلاع أحد المحاصيل، خرجتُ فالتقيت بأمي، سألتُها عن أبي؛ فأخبرتني باكية أنه ذهب يتفقّد زرعه الذي استيقظ الجميع ليجدوه وقد اقتُلِع من جذوره، كانت نكبة، ولكنه استقبلها بهدوء، كلما ثار إخوتي أطفأ غضبهم بحلمه، كان يعلم الفاعل، ولكنه كان يمهل من يؤذيه حتى يتراجع، أو إلى أن يعلّمه كيف يتقن فن الإيذاء.

عاودني الملل ثانية، ما إن أعتاد تلك الحياة حتى أملّها، وعجبت كيف تمكنت من العيش وسط غياب كل وسائل الترفيه، حتى الكهرباء لم تكن قد وُجدت بعد، كل شيء يغلّفه ظلام دامس، والماء لا شيء ينقيه، حياة خلقت بدائية، كنت أضطر لأن أحتضن (طست الغسيل) لساعات حتى أغسل

الثياب، وأنا التي نشأتُ في عصر التقنيات الحديثة، لا أدري كيف أعود إلى حياتي، ولا أعلم كيف أنتقل بين حياتين بتلك السلاسة!

عندما يطل الفجر أدعو الله ألا يحمل ذلك الصباح الجديد ما يكدِّر الصفو، ولكن غالبًا لا يُستجاب دعائي، طُرق الباب طرقات قوية ففزع كل من في البيت، كان الطارق أحد أقاربنا، أخبر أبي أن عمي"عبد الستار" -الشقيق الوحيد لأبي - قد سقط مريضًا، سافر أبي حيث شقيقه، وفي صباح اليوم التالي أحضره إلى بيتنا، خيَّم الفزع وأجواء الترقب على البيت الكبير الذي لم يخلُ من الناس ما بين زائر ومُواسٍ.

طلب عمي رؤيتي؛ فأرسل أبي في طلبي، دخلتُ الغرفة بعد أن خرج الغرباء، نظر إليَّ عمي وسأل: فين بسيمة؟

تدخَّل أبي فورًا وقال: يا أخويا بسيمة أهِيه قدامك.

نظر إليَّ ثانية وقال: لا دي مش بسيمة.

اضطرَبَتْ دقات قلبي وأنا آخذ يده بين كفي لأقبلها، وقلت: إيه يا عمي.. إنت نسيتني؟ نسيت غيط الدرة لما كت بتحطني فريح خيال المقاتة وتقوللي لما أشوف مين أطول؟ نسيت لما سرقت منك عنقود العنب وحطيته للكلب عشان ما يجريش ورايا؟ نسيت لما قلت لي إنك هتجيب لي حَلَق دهب وعمتي معالي مارضتش وإنت جبته من وراها؟

لا أدري من أين أتيت بتلك الذكريات، لكنني وجدها تنساب على لساني كالسيل، انشغلت بتلك الأنفاس التي راحت تعلو وتهبط إلى أن توقّفَت، ووجدتُ أبي ومن حضر من إخوتي يرفعون أصواتهم بالشهادة.

كانت وفاة عمي سببًا في تغيُّر حياتنا؛ فقد ترك لنا أراضٍ واسعة لن يرثها سوى والدي وعمتي، وتشتت أبي بين السفر إلى البحيرة وبين العودة إلى بيته، ومراعاة مصالحه ومصالح القرية الذي كان يشغل بها منصبًا رفيعًا هو "شيخ البلد".

تلقّى أبي ضربة عندما استمع العمدة إلى وسوسات أحد كبار القرية، والذي أقنعه بأن والدي يُضْمِر له العداء، وتحيَّن العمدة فرصة انشغال والدي بمراعاة أملاكه الجديدة فأسند مشيخة القرية لصاحب الوسوسات.

رغم الضربة القاتلة لم يهتز أبي وإنما جلس في غرفته المظلمة وحيدًا لا يقابل أحدًا ولا يغادر البيت.

ذات مساء احتوى البيت حركة غريبة، هجر أبي غرفته وجلس بين إخواني بصحبة أحمد، همساتهم أثارت فضولي؛ فذهبت أنصت لما يدبرون، قال أبي: دي مش أول مرة، أنا عمري ما أحدت حد بذنب واحد.. بس ده قلع لي زرعي، وخبص عليَّ عند العمدة، واتسبِّب في فتنة لو أنا ما طفيتهاش كانت ولْعت في البلد كلها.. مفيش بعد حرق الزرع جيرة.

رد أحد أشقائي: شور علينا يا آبه.. نحرق له داره؟ والّلا نقتله؟

رد أبي: إحنا مش قتالين يا ابني.. إحنا ما بنعتديش غير على اللي اعتدى علينا.

رد أحمد: طب يا خال ناوي له على إيه؟

ردَّ في هدوء: الأول آخد منه تمن القطن اللي اتقلّع واترمى.. وبعدين بقى هخلعه من مشيخة البلد اللي خدها ظلم وعدوان.

قال أحد أشقائي: قولنا يا آبه إزاي؟

قال بنفس الهدوء: أرضه مزروعة غلة.. بكرة بالليل تروحوا تضمُّوها وتطلعوا بيها على البحيرة وترجعوا تاني كأن مفيش حاجة حصلت.

رد أحمد: خلاص يا خال.. كأن الغلة راحت البحيرة، أنا هروح اتفق مع الرجالة اللي هينقلوا لنا.. يالّلا سلام عليكم.

سافر أبي في صباح اليوم التالي، ولم يعد سوى بعد عدة أيام عندما هدأ كل شيء، ولكن صاحَبَهُ قرار غريب؛ فقد أصرَّ على مغادرة القرية واستيطان البحيرة، كان قرارًا مفاجئًا ولكنه حاسم لا يقبل النقاش.

هجرنا البيت الكبير، وتركناه قائمًا كأنما يعاتب غرورنا على فعل الهجران، قطعنا المسافة بين قريتنا ركوبًا على الحمير والبغال إلى أن وصلنا إلى قطعة من الفردوس لم أتصور أنها موجودة قط، مساحة شاسعة من الحدائق التي تزدان بألوان الفاكهة المختلفة، يتوسطها بيت كبير بُنِيَ ليسكنه الأحبة، وعجبت كيف عاش عمي به وحيدًا لا تؤنسه حبيبة، وتذكرت أخيرًا أحمد والذي انتقل معنا ليعاون والدي على رعاية الأرض، تمنَّيت لو التقيت به صدفة، أو إن استطعت اختلاق تلك الصدفة! أعوذ بالله إن لكلمة صدفة تأثير السم الذي يقطع الأحشاء، كم أسعد أحيانًا أنني في عالم لا يوجد به ندم الذي منحني كرهًا خاصًا للصدف! كانت البحيرة مختلفة عن قريتنا؛ فقد سمح أبي للفتيات بأن يخرجن ليتنزهن في الحدائق المجاورة للبيت في أماكن بعيدة عن تلصُّص الرجال.. أصبحتُ لا أرى أحمد كثيرًا رغم أنه يسكن معنا في نفس البيت، حتى هو لم يسعَ لرؤيتي، وكأنما كل تلك الذكريات التي منحها لي قد انتهى مفعولها بعد الخطبة.

أقضي أيامي أبحث عن ذاتي، تارة أبحث عن بسيمة، وتارة أخرى عن نهاد، حتى أدركت تمامًا أنني لن أكون إحداهما يومًا، لن أُضيع حياتي في تلفيق ذلك الصلح الذي ما أن تسقط عليه أشعة الشمس حتى ينهار، أيًّا كنتُ، فأنا سعيدة بحياتي، لن

قلت وقد تطايرت النشوة من عينيَّ وبدأت أستسلم للواقع: ليه بقى؟

رد بغضب: الحصان ده بالذات مش زي الخيل التانية.. غدار.. ممكن يوقعك في دقيقة.

قلت: بس ما وقعنيش أهوه.

رد: إفرضي بقى طبعه غلب عليه ووقّعِك كسر رقبتك أعمل أنا إيه؟

قلت :-هتعمل إيه في إيه؟

غمز بعينه وقال: أتجوز مين يا بت خالي؟

قلت وقد استعدتُ صرامته: البنات على قفا من يشيل يا ابن عمي.

ابتسم فضحك عالمي كله وقال: يا بت إنتي ما لك عاملة زي الخشبة كده ليه؟ حاطّة في صدرك ده إيه.. قالب طوب؟

قلت بعناد: لا وإنت الصادق..قميمة طوب بحالها.

قال: والله أنا غلطان، بعد كل ده عرفت إني حبّيت راجل.

قلت: إذا كان عاجبك.

رد: رضينا بالهم.. ثم أكمل: عليَّ النعمة إنتي عسل، أنا هتجوز عسل يا ناس!!!

ردَّت أمي وقد خرجت تستطلع ما يحدث: هو خالك جه يا أحمد؟

استعاد أحمد رزانته فجأة وقال: لا.. خالي في الأرض القبلية هييجي كمان حبة.

فجأة رد والدي: وآديني جيت أهوه.. بتعملي إيه عندك يا بت؟!!

كانت ليلة تخلّى عن سمائها القمر؛ فما إن غادر أحمد حتى أمسك بي أبي من شعري، لم يعاتبني، وإنما منحني ذكريات طبعتها على جسدي"ستوتة"، وهي عصاه التي صَلَبَها على الحائط ليؤدب بها من يفتقر للأدب.

ظللتُ طوال الليل أبكي ذلك الإذلال، لم تكن المرة الأولى التي أُهان بتلك الطريقة؛ فقد عوَّدتني أمي على تلك الإهانات منذ كنت طفلة إلى أن تخرَّجتُ من الجامعة، تغيَّرت ثقافتي وحياتي وظلت هي وفية لتفكيرها الذي انصبَّ على إخضاع الأنثى بالضرب.

رغم الثمن الباهظ الذي كلّفني لقائي بأحمد إلا أنني كدت أموت لألقاه ثانية، لا أدري لم اشتعلت اللهفة بقلبي، ووددت أن أراه ولو لمرة أخيرة، وإن كلفتني رؤيتي له حياتي، صارحتُ

شقيقتي والتي لعنت تفكيري الذي يشرف عليه الشيطان ذاته، طالبتني بكبح تلك الرغبة التي ستتسبب بطلاق أمي وتشريد عائلتنا، والتي ستلحق العار بنا، فظللت أبكي وأتحسر إلى أن لانت ووعدتني بالمساعدة.

سافر أبي إلى القرية ليجمع محصول الأرض، وترك عندنا أحمد ليراعينا، كانت فرصة مثالية لكي أطفيء أشواقي الغامرة للحديث معه، ولكنني خشيت إن ذهبت إليه أن أفقد هيبتي واحترامي؛ لذا حاولت ان أخمد تلك الأشواق.. جلستُ خلف البيت أتطلّع للقمر، أتخيل به وجه حبيب أنتظر أن يظهر ثانية ليثبت لي جدارته بحبي، كم هو رائع ذلك القمر عندما تحجبه غلالة رقيقة فتظهر من تحتها مفاتنه ثم تنزع عنه ليتعرى، وآه لما يحدث عندما يتعرّى القمر!

كنت أتغزّل بالقمر البعيد فقط لأنه بعيد، فإن اقترب لا أدري إن كنت سأكن له نفس المشاعر أم هو البعد الذي يمنحه البهاء الطاغي والإغراء الذي يدفعني لهجرة الأرض واعتلاء السماء فقط من أجل الاقتراب منه؟ وإن اقتربت واكتشفت أنه لا شيء.. ترى هل سأغضب؟

حتى القمر عندما يكون بعيدًا لا تظهر مساوؤه، حتى القمر يغري كل من يراه وهو لا يستحق.. حتى القمر ينير العالم

ويضن على نفسه بالضوء.. يا للقمر! ترى أهو مخادع أم مضحٍّ؟

فجأة انقطع تفكيري عندما سمعت صوت أحمد يحادثني: إيه قَعْدِك عَنْدِك الساعة دي؟

كم هو جميل أن تتحقق الأحلام! ردَدْتُ قائلة: كت باتفرج على القمر.

رد: ليه؟ وأنا مش عاجبك تتفرجي عليَّ؟

قلت: وهو إنت فين؟!.. أنا بشوفك؟!

قال مبتسمًا: وإنتي عايزة تشوفيني؟

صمتُّ عندما تذكَّرتُ أحضان ستوتة؛ فأكمل قائلًا: وحشتيني يا بت.

لم أرد، فاحمر وجهه وقال: أبوكي عمل إيه لما شافنا واقفين مع بعض؟

قلت: ضربني.. كان هيكسَّر ستوتة عليَّ.

قال بحنان لم أره بعينيه من قبل: معلش.. ما تزهقيش.. بكرة ربنا يلم الشمل واكسر لك رقبة ستوتة دي.

قلت: والله أنا خايفة لو جه عندنا بعد ما نتجوزوا ولقاني قاعدة معاك يكسَّر لي عضمي.

ضحك فضحك القمر وقال: لا ما تخافيش ما أنا مش هقعد معاكي بعد ما نتجوزوا، هقعد مع أمي.

قلت: طب ما تقعد معاها من دلوقتي وتريَّح نفسك؟

رد: يا بت بطَّلي كلامك الناشف ده، دد أنا بحبك والله العظيم.

طَرِبْتُ لسماع كلمة أحبُّكِ، وكم حسدت بسيمة على تلك النعمة التي منحها الله لها.. "نعمة أحمد"، استغرقتُ في التفكير، بينما جلس هو ينظر إليّ مبتسمًا وكأنه تبع تفكيره فضاع، أفقتُ على قوله: بت يا بسيمة.. انتفضت وأجبت في ذعر: إيوه يا أحمد؟

قال: أنا عايز أعرف إنتي بتحبِّيني والَّلا رضيتي بالجوازة دي بس خوف من أبوكي؟

نظرتُ إليه متأملة ملامحه الوسيمة، ثم تدفَّقت الكلمات من أعمق أعماقي فقلتُ: خوف ده إيه؟! هو أنا أطول ضفرك يا ابن عمتي؟ دا إنت أحسن جدع في الدنيا كلها.

صمت وطال صمته ثم قال: وأنا لو دوَّرت في الدنيا كلها مش هلاقي زيك يا بسيمة، أنا بعزِّك قوي يا بت خالي والله.. وخايف من لهفتي دي.

قلت: خايف من إيه؟

رد: مش عارف.. زهقان من غير سبب.

قلت: ولا يهمك..خير اللهم اجعله خير.

ظللت طوال عدة أيام استمرئ تلك الكلمات البسيطة التي شحنت مشاعري، كيف يمكن أن تذوِّبني وأنا في النهاية امرأة أخرى؟ ترى إن عدت إلى هاد كيف سأعيش حياتها بلا أحمد؟

عندما لفظ أحمد كلمة "أحبك" شعرت بأن هذه الكلمة خلقت لي، خرجت من بين شفتيه بكرًا لم تُبذل من قبل لبشر، سمعتها كثيرًا من ندیم، ولكنني كنت أقرأ فيها دائمًا عبق أخرى تنافسني وتعجز حواسي عن التخلص منها.. كم هي محظوظة بسيمة، وكم أنا ممتنة لأنني أعيش معها تلك اللحظات.

ظهر فجر جديد تمنيت أن يحمل نسمات حب جديدة كالتي منحتني أجنحة بالأمس، مرَّ الصباح عاديًّا، إلى أن أخبرتني شقيقتي أن هناك مشكلة حدثت بين أحمد ومجموعة من العرب"البدو" الذيت استوطنوا قرية مجاورة تمر عليها المياه التي تروي بساتيننا.. خرجت إلى ساحة البيت فسمعت أحمد يحادث والدتي في غضب قائلًا: يا مراة خالي.. لو ما عرفوش إننا رجالة نقدروا نقفوا وناخدوا حقنا بإيدنا هيستهزوا بينا، ومش بعيد يقطعوا علينا الميَّة خالص.

ردت والدتي: طب وبعدين يا أحمد؟

ردَّ في حزم: أنا مش هستنى خالي.. أنا هروح لكبيرهم، وإن محلّش هو من ناحيته يبقى خالي ييجي يحل.

ردت والدتي: تنحل عقد ضهرهم البعدا.. هو إحنا ناقصينهم؟ خلّي بالك من نفسك يا ضنايا.. في داهية الأرض اللي هتجيب لنا كل يوم وجع القلب.. ما تستنّي يا ابني لما خالك ييجي؟

رد: تكون الجناين ماتت يا مراة خالي.

شعرتُ بشيء أشتمُّ رائحته قبل أن يحدث دائمًا، و لم يخذل إحساسي بالتغيُّب يومًا، عاد أحمد وأكّد لأمي أن المشكلة انتهت، ومر يوم واثنان وثلاثة حتى تأكدنا أن المشكلة قد فارقها الشوق للعودة.

اليوم سيأتي أبي من القرية؛ لذا انشغل الجميع في إعداد الطعام وتنظيف البيت، وفجأة أتانا أحد الفلاحين راكضًا يصرخ: هو الحاج لسه ما جاش؟

ردت أمي: زمانه جاي.. فيه حاجة؟

رد في جزع: أحمد.. العرب ضاربين حلقته وبيضربوا عليه بالنار، وهو لوحده، ومحدّش عارف نطلّعوه إزاي!

صرخَتْ أمي وضربت على صدرها في رعب: يا ابني!

لا أدري كيف خلعت غطاء رأسي وجريت على بندقية أبي المحتضنة للحائط في كبرياء لأرحمها من ذلك الحضن أخيرًا، صحتُ بالرجل: ودِّيني هناك.. وصَّلني لأحمد!

جفل الرجل وقال: انتِ عايزة أبويا الحاج يقتلني؟ أوديكي فين؟

صرختُ: لو ما ودِّتْنيش أنا اللي هقتلك دلوقتي أهوه.

جرى الرجل أمامي وركضت خلفه وجيوبي تتساقط منها الرصاصات، لا أدري كيف انطلقت كل الرصاصات بيدي، ولا كيف وصلت لأحمد، الذي صرخ رغم الدماء التي صبغت ملابسه: إيه اللي جابك هنا يا بت؟

صحت به: جيت عشان مش عايزة أقضي طول حياتي مقهورة عليك يا أحمد.

انهمر الرصاص فوقنا وخلفنا، وتمدد أحمد جريحًا خلفي أدافع عنه بكل ضراوة، استحال العالم من حولي إلى نيران، فرغت مني الرصاصات؛ فلم أجد ما أدافع به سوى جسدي الذي غطيت به أحمد السابح في دمائه، توقَّفت الرصاصات وتوقَّف كل شيء فجأة، وركض قلبي وأنا أحاول حمل أحمد الجريح

فاقد الوعي، وقد تحولت ملابسه إلى جحيم من دماء، لا أدري منذ متى كان أبي موجودًا، وقف ممسكًا بندقيته ومحدِّقًا بي وأنا أجتهد في حمل أحمد الذي استسلم تمامًا، أمسك بيده، ناداه، تفقَّد عينيه، كشف عن جسده يبحث عن جروح، حاول إعادة الدماء إلى شرايينه الغادرة، صرخ، نادى، ثم استرجع.

ركعتُ أمام أحمد أنظر إلى جسده المسجَّى أمامي، أبحث عن سبب واحد يدفعني للحياة بعد موته، وانكفأت عليه أبحث عن أحمد.. أين أحمد؟! أين أحمد؟!!!

فجأة وجدت صوتًا يناديني: "نهاد.. نهاد؟".. صرختُ فوجدت نفسي بين ذراعي شقيقي "سامي" في غرفة طغى عليها الأبيض، وقد دفن رأسي بين ذراعيه!

ســــــامي

نظرتُ إلى وجهه؛ فهالني كم الجزع الذي رسمته عيناه، لون وجهه الشاحب ينبئ عن خطر ما يُحْدِقُ بشقيقتي الصغرى والوحيدة، جلستُ أنصت لأسوأ مخاوفه وسيل استفساراته؛ فتضاعفت قوى الخوف بخيالي، وشعرت بأنه لم يبالغ أبدًا عندما طالبني بترك عملي بالغ الحساسية والأهمية والعودة إلى مصر لأجل "نهاد".

كانت المرة الأولى التي يحادثني فيها نديم بتلك الطريقة، كان ضائعًا، يسيطر بصعوبة على عبرات اعترضت كلماته، أشعرني صوته المرتجف أن قرار العودة هو الأكثر صوابًا؛ فالسبب الذي يهز ذلك الجسور هادئ الأعصاب لا بد أن يكون جسيمًا، أخبرني أنها مريضة تعيش بين الوعي واللّاوعي، مفتوحة العينان ولا ترى أحدًا، وعندما تنتهي تلك الحالة تعيش حالة من الاكتئاب الذي يدفعها للبعد عن العالم، لا يؤثّر فيها مؤثّر، ولا يدفعها للصحو دافع، ذهبتُ إليها فوجدتها ممددة على السرير الأبيض بين أجهزة الإعاشة ووجوه الأطباء، حاولتُ أن أجعلها تنتبه لوجودي، همستُ لها، حادثتها، حكيت لها قصصنا معًا؛ فمنحني وجهها مكافأة الموت، انسابت العبرات تشيّع شقيقتي الحبيبة، تلك الروح الوثابة طيبة المعاني، رائعة الحضور، لا شيء يجيبني سوى الصمت، وجسدها الغض ملقًى بلا أثر للحياة.

منذ كانت طفلة كنت أدري أنها لن تتحمل ذلك الهول بمفردها، ظلّت تتجرع كئوس القهر وحيدة؛ لا لشيء إلا لأنها ابنة وحيدة لأمرأة شاء القدر أن تكون أمًّا لنا، كانت مزيجًا غريبًا بين الأمومة والقسوة، قوة البأس وشدة الضعف، رُبى الصحة ووديان المرض، ريفية رُبِّيت على كبت الأنثى سواء كانت بداخلها أم خارج أسوار ذاتها، أحبَّتني لدرجة الموت، وقست على نهاد إلى أن حوَّلتها لأطلال.

كان عاديًّا بالنسبة إلي أن أراها وقد تركت كتبها ودروسها وانحنت تلمِّع أرض البيت أو تطهو طعامنا، لم أشاهدها يومًا تحتضن لعبة تلهو بها، أو تخرج بصحبة صديقة لتزيح عن كاهلها حُرقة الملل.

كنت أجلس معها أحيانًا فلا نجد للصمت معنى؛ فأتركها وأذهب، لا شيء يرحم، ولا أحد يقدر ما تفعله من أجل الجميع، تركنا أبي من أجل أخرى؛ فشبَّت نيران الغيظ بقلب أمي التي أفرغتها بقلب نهاد بلا رحمة.

كان يعيبها حبها لأبيها، فلم تنكر عليه فعلته ولم تلعن زوجته في حضرة أمي ولم تنعتها بالساقطة، كانت تنتظر والدنا خلف الباب عسى أن يعود ليلة ما فيشحن طاقة الحب بقلبها المعذَّب، ولكن حتى هو لم يكن يعنيه أن يُشعرها باهتمام.

لم تتحمل أمي فعلَة أبي؛ فانهارت أعصابها، وأصيبت بجنون الارتياب، كانت تنام وعقلها ساهر يبحث لأحدنا عن خطأ، وما إن يجده حتى تصحو لتنتقم، لم تكن تجرؤ على الانتقام منا نحن الذكور؛ لذا تفنَّنت في اضطهاد نهاد، ولأنها لم تجد من ينجدها لم تجد أمي رادعًا، كلما زاد مرضها كلما زادت في التنكيل بنهاد، ولم أجد وسيلة لمساعدة شقيقتي، فهاجرت إلى أميركا بحجة الدراسة ثم بحجة العمل، كنت جبانًا فضلت الهرب، لم أشغل تفكيري الثمين بتلك المسكينة، فلم يكن يعنيني سوى التخلص من ذلك الكابوس الذي يعيش بداخلي، هربتُ من عجزي ومن ضعفي، وفضَّلت أن أعيش جبانًا، علاقتي بها اقتصرت على رسالة تحمل بعض الكلمات التي لا تتغير، واتصال هاتفي أتجاهل دومًا أن أسأل خلاله عن سبب تغيُّر صوتها، والذي أعرف تمامًا أنه نتيجة بكاء.

كنت أُدرك أنه يومًا ما سينهار ذلك الكيان الجبار تحت ثِقَل الحدث، لكني لم أتخيل أنه سينوء بحمل الذكريات، كنت أخشى أن يتحول عقل نهاد إلى نسخة من عقل أمي، وقد تغذَّى هذا الخاطر على كم كبير من الأهوال والمواقف القاتلة، كم يشق عليَّ أن أراها نصف ميتة ولا أهبُّ لنجدتها، كنت أتمدد بجوارها محتضنًا رأسها، أحاول تعويض ما تبقَّى منها على طول خذلاني، عاد الزمن ثانية حتَّى أهتم بها، وأساندها بحربها

ضد قوى الظلم والتي لم تفعل بها سوى الاستسلام، كنت لأبعث بداخل خلاياها صمودًا لا ينتهي سوى بالنصر، كنت لأعلّمها كيف تتشبث بالحياة، وكيف تعلّق كل آلامها على مشنقة التجاهل، كدت أغفو حين شعرت بها ترتجف في عصبية، ثم صدر عنها صرخة أفزعتني، صاحت: أحمد.. أحمد.. ثمَّ فتحت عيناها اللتان تسمَّرَتا على عينيَّ ثم بكت.

تمتمت بكلمات لم أفهمها، أقسَمَتْ أنها تعيش بعالم آخر، بشخصية أخرى، تمنَّيْتُ أن أستبين ما في عقلها، استخدمتُ مهارتي في التحليل، ولكنني فشلت في فهم ما يحدث.

حاولتُ مجاراتها، ولكنَّ عقلي أبى أن يصدِّق، حادثتُ الأطباء، واستشرتُ إخصائيًّا بعلم النفس، لعلَّ أحدهم يفيدني، ولكني كنت أدور حول جدار المشكلة دون أن تسمح لي باقتحامها ودحرها.

مرَّ يوم وآخر وبدأت تتعافى، استردَّت كامل طاقتها، جلست أراقبها وهي تروح وتجيء، تعدُّ طعامًا يكفي لقبيلة، تغني لحنًا حزينًا لم أستطع التقاط كلماته، لم تكن صافية الذهن، فبينما نتحادث نادت نديم باسم "أحمد".

أخذتُ أراقب وجه نديم الهادىء وقد تحولت قسماته إلى بركان، ثم ابتسم قائلًا: إن كان يسعدك أن أكون أحمدًا فناديني بأحمد.

شعرتُ أن الأمر قد تعدَّى مرحلة الخطر وبدأ مرحلة الهلاك،
لا أدري إلى متى سيتحمل نديم ذلك الضغط العصبي وحده،
كيف سيعيش مع امرأة نصف واعية، حتَّى الحب في هذه الحالة
لن يفيد.

عدتُ إلى نفسي فجأة؛ فاصطدمت بسامي، وكم سعدت عندما شعرت بذلك الدفء الذي اعتاد صدره أن يشعه رغم بعده، رغم كل شيء.. كان لي مصدر الحب، حاولت أن أُفهمَه ما أمر به حتى يشاركني ذلك الكابوس الذي يضغط على عالمي كله ويحوله إلى بيت أشباح، فلا أستطيع أن أبوح به لندم.

عرضت على شقيقي "سامي" أن نذهب إلى قريتنا، فلدي من الأسئلة ما يدفعني للذهاب لفك رموز ذلك السر الذي لا أفهمه.. ذهبنا إلى إحدى خالاتي، تعلَّلتُ بدراسة يجب عليَّ كتابتها عن قريتنا قديمًا، سألتها عن جدَّتي الراحلة، ووجدت نفسي أجيب عن الأسئلة بنفس الإجابات التي تجيب بها خالتي، بل كنت أتفوَّق أنا بمعرفة التفاصيل.

لم يقتنع سامي، وعجزت عن إقناعه، فسألته أن نزور من رحلوا عنا وتركوا لنا اللوعة والصمت، ذهبتُ إلى قبره أتأمل جدرانه عسى أن يرتوي ظمئي له.

جلست مسندةً رأسي إليه، وجلس هو أمامي منكّس الرأس وقد تخلت عن عينيه دموع سالت لتذكرني بمن فارقني ليعود إلي فلم يعد، فضل عليَّ الموت، ترى هل الموت أكثر دفئًا من صدري؟

كنت أروي شجرة الياسمين التي زرعها أبي وهجرها لتذوي فلم أسمح لها بالموت، توقّف بسيارته أمامي، ألقى عليَّ السلام فلم تواتني جرأة الرد، ابتسم وخلع عنه نظارته السوداء فغرقَتْ عيناي في لون الفيروز، أخبرني أنه صديق لشقيقي، يعملان معًا في نفس الصحيفة، وأنه يحمل رسالة منه، رحَّبت به وسألته الدخول، سار أمامي بطوله الفارع وقامته الممشوقة وبنيته القوية؛ فشعرت أن تايتنك إن اتَّكأت على أحد ساعديه لما غرقت.

كان لقاءً قصيرًا، ولكنه نقش على قلبي بحروف من اشتياق، اشتقت لعينيه الزرقاوين التي ما إن أنظر إليهما حتى أشعر بالعطش، هما كلون البحر ربما أو ربما لون السماء.. غموضهما كهرم شيَّده الفراعنة وأبت مهارتهم أن يفتح فتنكشف الأسرار، تحملان ألف سؤال وسؤال، وتضيع الأسئلة والأجوبة خلف ستار الهيبة.

ظلّت خيالاته تطاردني وكأن ذلك اللقاء العابر كان السبب الذي سيخلصني من ويلاتي، كنت أعيش حياتي داخل جزء من خيالي، أهرب من واقعي المؤلم لأجد به من يربت على كتفي ويواسيني، لا أبتسم إلا بخيالي، منذ التقيت به عشقتُ الوهم وأدمنت الخيال.

يومًا ما أخبرني "سامي" أن زميلًا له سيأتي لزيارتنا، وطالبني بإعداد الطعام الريفي الذي يعشقه أبناء المدن، كدتُ أسأله إن كان هو ذلك الوسيم أزرق العينين، لولا أن منعني خجلي، وكم ملأت السعادة خلايا وجعي عندما انشق عنه باب البيت وظهر كقمر النهار، مبتسمًا.. محمَّلًا بهدايا لم أصدق أن نصفها على الأقل كان لي.

كانت المرة الأولى التي أرتدي بها ثوبًا يحمل علامة تجارية عالمية، المرة الأولى التي أضع ذلك العطر الباريسي الغامض، وأضع ذلك الشيء الذي حوَّل وجهي لوجه قمر، جلس سامي يراقبني في انبهار كأنها المرة الأولى التي يكتشف فيها أن شقيقته لم تَمْحُ بداخلها الأزمات صفة الأنوثة.

تعددت زياراته التي كانت تسقط على قلبي الملتهب كماء الغمام، لم يحادثني قط، فقط بعض كلمات المجاملة يمنحها لي عندما أقدم له شيئًا ما، ولم تَنُمّ نظراته عن إعجاب، كظمت قهري بقلبي ولم أُبدِها لأحد، وأضفت إلى سجل خيباتي لوعة الحب.

كان يتَّصل أحيانًا يسأل عن والدتي، فأجرِّد صوتي من حرقة اللهفة، وأمنحه صوتًا بلا ملامح، وبعد انتهاء الحديث أرتمي بفراشي أبكي إلى أن جفت بعينيَّ سحب الدموع.

قررت أن أكرهه؛ فحب كهذا سيجردني من كبريائي، فلن أظل طوال حياتي أتعبد بمحراب إله لا يشعر حتى بوجودي، لن أمنح الحب لظلال رجل لا يدرك حتى أن هناك أنثى تشتهي منه ابتسامة حب، أو حتى مجرد ابتسامة أتصبر بها على مُرّ أيامي.

مرَّ عام وأنا أُقنِع قلبي بنسيانه، وبعد أن نجحت تمامًا في تخديره ظهر بحياتي فجأة، ظهر ليقذف بي إلى جحيم ألفت العيش فيه، قدمت له الشاي منكّسة الرأس حتى لا أعود لحبّه إن التقت عينانا؛ فابتسم قائلًا: لا ينبغي للملكة أن تحني رأسها لغير الله.

أجبتُ وقد أسكرتني الكلمة: لست ملكة يا سيدي.. أنا فتاة عادية.

رد: لم تلفت انتباهي من قبل فتاة عادية، فلا أتعامل سوى مع الملكات.

قلت: شكرًا سيدي لإطرائك.

قال: ليس إطراءً بقدر ما هو حقيقة، تدرين أني أتصورك دائمًا تضعين على رأسك تاج ملكة إنجلترا، لا أدري لم.. ولكن لا يليق بجمالك سوى جواهر ذلك التاج.

قلت: لم أضع يومًا تاجًا على رأسي، وإن وضعته فلن يحوي ماسات.

اتسعت ابتسامته فخطف قلبي، وهممت بالانصراف عندما عاد سامي بعد غسل يديه، ولكم تمنيت أن تنقطع المياه عن محافظتنا بالكامل حتى يظل سامي يبحث عن ماء يزيل عن يديه أثر الطعام، ويتركني أحادث ذلك الفارس وأُكمل حديثًا لم يكتمل سوى بمخيلتي.

سافر فسافر معه صبري، وجلست أعد اللحظات، أذاكر حتى أشغل ذهني المتأهب دائمًا لتذكُّره، يا الله! كم هو مبهر، رقيق، ثابت، هادئ.. كم عشقت نبرة صوته الهامس دائمًا ليقتحم المشاعر ويدك الحواس بلا هوادة.

مرَّ عام آخر، وفاجئني سامي بما زلزل كياني، طالبني بأن أذهب معه لزيارة صديقه؛ فأهله يتشوَّقون لمعرفة تلك الكائنات الأسطورية التي يحكي ولدهم عنها.

رفَضَتْ أمي ووافق أبي، فجلست أنتظر القرار، أراقب سامي الذي غضب لعناد والدتي، يحاول تارة إقناعها، وتارة أخرى يحاول الضغط عليها، وتارة يهددها بالعودة ثانية إلى أميركا.. سئمت ما يحدث؛ فدخلت غرفتي ومنحت نفسي لنوم عميق.

عند الفجر أيقظني سامي وقد تهلل وجهه، أخبرني أن والدتي قد وافقت أخيرًا على فك قيودي، ووجدت قلبي يسابق الطائرة التي صمم شقيقي على الذهاب بها إلى قنا.

عندما لاح لي بيته شعرت بخوف غامر ضرب حواسي فمنحها طعم الشلل،فيلًا ضخمة تلوح من بعيد، وكأنها تطالبني بالعودة إلى بيتي الصغير وعالمي المحدود، يحيط بها سياج يحمي من يسكنها من نظرات المتلصِّصين، تتحدى كل من يمر بها أن ينظر إليها ويطيل النظر حتى تسيطر على أحلامه، اقتربنا أكثر ؛فتجلت حديقتها التي تحتضنها في حنان، وتبدو كأنها قُدَّت من جنة المتقين.

ابتسم وطالبني بالدخول؛فزاد تضاؤلي، ولكن والدته أخذتني بين ذراعيها وكأنها تعرفني منذ وُلِدْتُ،نادتني بـ"ابنتي"، وجلست بجواري تمتدح ملامحي وتربِّت على كتفي وكأنها أمي.. كم حسدت "جواد" على تلك الأسرة التي تقطر ودًّا.

صاحبني إلى الأقصر وأسوان فرأيت وجهًا آخر للنيل، وجهًا ضنَّ به علينا نحن أهل الشمال ومنحه لمن يستحقونه من أهل النوبة الكرام.

جلست بالحديقة أتامل ملامحها، فخطف بصري سباقًا بين سامي وجواد، والذي انتهى بفوز سامي الذي دفعه جواد بكامل ملابسه إلى حوض السباحة، ثم وقف بعيدًا عن الحافة يطالبه بالخروج.

خرج سامي وقد توعَّد صديقه الأقرب بردٍّ مزلزل، ذهب شقيقي ليبدِّل ملابسه التي ابتلّت بالكامل؛ فأتى جواد وجلس بجواري، ذبحتني ابتسامته، وشعرت بخطر جديد يهز كياني، مال ليلتقط نظارته الشمسية فضرب أنفي جحيم أنفاسه، ارتجف قلبي وجمدت يدي وهو يقول: أتدرين.. لم أغْدِر يومًا بشقيقك، ولكنني فعلتها اليوم.

قلت في خفر: استأت كثيرًا لما فعلت.

ابتسم: إنها الحيلة الوحيدة التي أهداني الشيطان كي أنفرد بكِ.

قلت: تنفرد بي؟

قال: نعم..اشتقت لصوتك..لرجفة شفتيكِ عندما أحدِّثُكِ، لخجلك الذي يوقد بداخلي شرارة الجرأة.

زاد خجلي، ونسي لساني لغة العرب؛فأكمل قائلًا: أتدرين، إنها المرة الأولى التي أرى فيها تلك الرجفة البكر التي تزلزل كل خلايا جسدك، مثل ثمرة بعيدة لم تلتقطها من قبل يد بشر.. نهاد!

لم أَرُد؛ فقد نسيت حينها اسمي.. فتابع: أنا لا أريد منكِ سوى شيء واحد.

قلت وقد تجمَّد لساني: ما هو؟

قال: أريد أن أضمَّك إلى عالمي، أتمنى أن أشرِّفَ بك أيام حياتي، وأن تفخر بوجودك عقارب ساعتي.. نهاد!

توقَّفت دقات قلبي و لم أرد.. فأجاب: أريدك حبيبة.

سقطت كل تمنياتي فتحطمت على جدار كلمته الأخيرة.. إذن فهذا ما يريده.. حبيبة فقط، نكَّستُ رأسي ثانية كعلم دولة مات حاكمها، وشعرت بأن العالم السحري الذي كان يزهو بقلبي منذ قليل قد تحول إلى عالم من غضب.

جاء سامي وقد بدل ثيابه، وأخذ يحاول جذب جواد إلى حوض السباحة، وجلست أراقب ثانية وجواد يصارع حتى لا يفسد الماء شعره المصفف بعناية وملابسه باهظة الثمن، وجدت بداخلي رغبة في استمطار عينيَّ فلربما يريح قلبي ذلك المطر.

منعتُ نفسي من البكاء عندما أخذت أراقبهما معا يمرحان كطفلين ويضحكان فيرتج لضحكاهما العالم، إلى أن نجح سامي أخيرًا في الإيقاع بجواد الذي أمسك به حتى غاصا معًا في الماء.

كانت "جلنار" شقيقة جواد تصوِّر ما يحدث بكاميرا الفيديو الخاصة بها، كنت ألمح بعينيها بريقًا غريبًا عندما يحادثها "سامي"، شعرت للحظات أن ذلك البريق ما هو إلا انعكاس لمشاعر الحب.

ما إن انفردت بشقيقي حتى أخبرته برغبتي في العودة، ولم أجد سببًا مقنعًا لقرار الفرار من تلك الجنة، نظر إليَّ متفحصًا فنفذت نظراته إلى قلبي، وخشيت أن يرى جواد متربِّعًا على عرشه فأغمضت عينيّ.

حتى لا أسبب التعاسة لشقيقي احتملت وجودي معه، أعشقه.. ولكن غرامي ليس مجرد حب للحب، ليس أقل من أقضي حياتي كلها أتفانى في إسعاده، أريد أن يحمل طفلي بين ذراعيه ويناديني بأم أطفاله.. أدري أنني شططت بخيالي، ولكنني أحتاج من يضع قلبي بين كفيه ليحافظ على ما تبقَّى مني، حتى إن أراد جواد الزواج مني.. لا أعتقد أن أسرته ستوافق؛ فبيننا ألف فارق وفارق.

وجدتني ألتمس له الأعذار، وأبتسم له عندما منحني ابتسامة، وأتبَعَها بكلمة: صباح الخير يا ملكتي.. ما رأيك بهذا المشهد؟

أشار إلى القرية البعيدة التي تحتضن النيل وتحيطها الأرض المزروعة من ثلاثة اتجاهات والتي نراقبها من أعلى فنشعر كأنما نعتلي قمة العالم.

قلت: مشهد رائع.

قال: أتدرين ما سبب روعته؟

رددت: ما السبب؟

نظر إلى عينيّ مباشرة وقال: أنت.. لقد رأيته آلاف المرات، كنت أصحو من نومي وأقف في تلك الشرفة.. تلفح وجهي أنفاس الصباح فأشعر بالوحدة، أمارس رياضتي اليومية وكأنني أبحث عن سبب للحياة.. أما الآن فلذي أنت.. أنتِ من تمنحين ذلك المشهد الساحر رونقه.. نهاد!

لم أُجب فقد أسكرت كلماته إدراكي؛ فأكمل: هل أستطيع لمس يدك؟

حاولتُ رسم ملامح الغضب على وجهي؛ فابتسم قائلًا: أتدرين أني أعشق المرأة الصعبة، عندما أمتلكها تمدني بشعور الزهو.

قلت وقد فاض بي الغضب: لست صعبة يا سيدي.. لست كصديقاتك اللائي يرتمين تحت أقدامك، أو من يمثّلن العفة حتى يوقعن بك.. أنا لا أنتمي حتى لعالمك المبهر، ولا أهتم كثيرًا بما تريد مني؛ فلا أؤمن بالحب.

نطقتُها وكأنني أجرد نفسي من دثار ثقيل غطى عقلي وقلبي، فلقد سئمت غروره، وجَّهت نظري إلى اللانهاية أحملق بتاريخي المضني، وأنعي حلمًا مات بعد أن أضناني مخاضه، فلم تستمتع عيناي حتى برؤيته.

وقف بجواري صامتًا، تعصف أنفاسه الهادئة فتزلزل خلجاتي، وعطره المضني يهاجمني حتى أكاد أستسلم له في ذلة.. رحمني شقيقه "أدهم" من وساوسي، فطالبه بالانضمام للجميع لتناول الغداء، سألني جواد أن أذهب معه؛ فمنعني الانفعال عن إجابته، أما أدهم فقد رافقني وقد أشار إلي بعلامة النصر.

وضعت عينيّ في الطبق محاولة تجاهل الجميع، بينما جلس أدهم بجواري يراقب وجه شقيقه الذي جلس يستمرئ طعامه في هدوء، وينقل بصره بيني وبين أسرته.

في المساء طالبني أدهم بمرافقته في جولة في حديقة البيت، ولم أتردد؛ فقد خرج سامي بصحبة جواد ولن يعودا سوى بمنتصف الليل كدأبهما.

ظل صامتًا طويلًا إلى أن همس: أدري أن جواد معجب بكِ.. يكاد يجن ليحصل عليكِ.. فهل تحبينه؟

ثارت الريفية بداخلي فقلت: سيدي.. أنا لا أحب أحدًا، فأنا من عالم لا يعترف بالحب.

رد في هدوء: نحن من نفس العالم يا جميلتي، ولكن شقيقي يرغب بكِ، وأشعر بداخلي أنكِ تبادلينه نفس الشعور.

رددت: لا سيدي.. ربما هو من يتوهم ذلك.. أنا لا أحبه.

قال: نهاد.. أتدرين أنني أعمل جرَّاحًا للقلب، يضع الناس قلوبهم بين يدي كي أصلحها لهم.. علَّمتني خبرتي أن أقرأ ما بالقلوب بمجرد النظر لأعينهم.. وها أنا أقرأ بعينيكِ حبًّا لشقيقي.. لا تحاولي خداع جراح قلب ثانية.. رجاءً.

لم أرد فأكمل: لا تحاولي صده، اجعليه معلَّقًا بين الحب والرجاء، لا تفقدي هيبة كبريائك، ولا تستسلمي لمناوشاته، فلم يسبق أن سَلِمت منه امرأة، هو يبحث عمن تحمل اسمه، ولن تحمل اسمه امرأة يستطيع نيلها.

قلت: سيدي.. أنا لا أهتم بما يريده، أنا فقط ضيفة.. رافقت شقيقي لأزوركم.. ربما لن نلتقي ثانية.. ربما يتوهم هو ذلك الحب.. وبمجرد غيابي سينساه.

رد قائلًا: لا يا صغيرتي، لقد تدلَّه بحبك منذ اللحظة الأولى.. ولكنه خشى أن يصرح بحبه احترامًا لشقيقك.

قلت: سيدي، أنا لست مهتمة بتلك القضية.. إنه شأنه هو.

قال: اسمعيني للمرة الأخيرة.. فلن أكرر ما قلت، من يحصل على شيء بسهولة يفقده بنفس السهولة.. فقط كوني قوية.

قلت: شكرًا لنصيحتك.

في اليوم التالي أخذتني جلنار إلى قاعة "الجيمانزيوم" الملحقة بالبيت، كانت تمارس رياضتها في صبر وإصرار، فجأة دخل

جواد وطالبها بارتداء ثيابها لأننا سنذهب في رحلة خارج البيت.

تطلّعت إليه جلنار ثم نظرت إليّ وذهبت، كدتُ أخرج لولا أنه أمسك بذراعي بغتة وقال في همس: أكاد أموت.. أحبك.. ويأبى غرورك أن يبادلني الشعور.. ترى إلى متى؟

قلت: اترك يدي.

قال: لن أفعل.

قلت: سأصرخ!

قال: أنتِ أعقل من ارتكاب تلك الحماقة.

أمسك بي في قوة فقلت: أرجوك..لا ترمي بي للجحيم.

قال: إذن.. ارمِ بي إلى الجنة.

قلت: جواد.. اتركني.

قال: لن أفعل.

قلت: سأخبر شقيقي.

قال: لن يمانع.. فهو أيضًا مولع بشقيقتي.

قلت: ماذا تريد مني؟

قال: فقط قولي.. أحبك.

قلت : ولكنني لا أحبك.

رد: أكره الكذب.. انطقيها.. اروِ بقلبي تلك الوديات المتعطشة لحبك.

قلت: لن أفعل.. لن أقولها.

ضمَّني إلى صدره وأحاطني بذراعيه حتى كدت أسقط أرضًا، وقلت: أحبك.. ها أنذا قلتها.. اتركني.

همَّ بالذهاب، ولكنه التفت إليَّ قائلًا: لم أتمنَّ أن أحصل عليها مشوَّهة كجنين عار.. إن كان حبي يثير بقلبك ذلك الذعر فلا تحبِّيني.

تركني وذهب؛ فهمست: جواد...

رد: نعم نهاد؟

أغمضت عينيّ وقلت: أحبك..

اندفع إلي كشلال حب أراد أن يغرقني، ولكن سدود صداقته لشقيقي حالت دون هلاكي بذلك الحب، يومها لم يحدِّثني، وقضيت بقية يومي أندم على اعترافي، ليتني لم أمنح له كفِّي ليمنحها تلك القبلة التي أودعها كل مشاعره فأحرقت بقلبي كل صبر، كانت المرة الأولى التي يقترب فيها مني رجل،

له جسد شديد الدفء، شديد المرونة، جعلني أدمن الاقتراب منه.

رأيته واقفًا بمطار قنا يودِّع شقيقي، احتضنه وربت على كتفه في قوة، بينما منحني نظرة تائهة مزجها بابتسامة باهتة وعضَّة على شفتيه.

لا أدري إن كان نادمًا على تلك اللحظات التي منحها لي، أم إنه قنع بما حصل عليه وتوقف عن ملاحقتي؛ لذا أغمضت عينيّ وحاولت نسيانه ثانية، فلن يشفي أوجاعي سوى النسيان.

عاد شقيقي إلى البيت، ورجعت أنا إلى الجحيم، فاجأتني أمي بابتسامة فتأكَّدت أنها مريضة، طالبتني بالتزين وارتداء الأجمل، ظننت أنها إحدى هلوساتها فسايرتها، ولكنني بعد قليل أنصتُّ لصياح سامي، كان يخبرها أن ذلك الشخص لا يتناسب معي، وأن زواجي منه سيحولني إلى خادمة بلا أجر، بعد قليل هدأ كل شيء وجاءني سامي، قال وقد توترت حروفه: نهاد.. هناك من تقدَّم لطلب يدك.. في الحقيقة أنا أتمنى لكِ السعادة ولكن ليس معه.

سألت: من هو؟

قال: ياسر.. ابن خالتك.

قلت: لهذا ابتسمت أمي، ترى هل تقايضني أمي حياتي التعيسة التي سأعيشها معه بتلك الابتسامة؟

أحني رأسه فأكملت: إن كان ذلك سيسعد والدي سأوافق فقط من أجلها؛ فحياتي كما ترى.. بلا ثمن.

قال في غضب: لا يا حبيبتي.. حياتك ليست رخيصة، هناك من يتمنّى أن يبذل كل حياته من أجل الحصول عليكِ.

قلت وقد سبقت الدموع كلماتي: لا تجاملني؛ فأنا أعلم من أنا، إن كنت لا شيء بنظر أهلي فلن أكون شيئًا بنظر الآخرين.

رد: تعرفين.. منذ ساعات قليلة أخبرني جواد أنه يرغب في الزواج منكِ وطالبني بإخبار والدي.

سقطت الصدمة على رأسي ففقدت النطق فأكمل: لم تلد امرأة من قبل رجلًا مثل جواد، إن تسبَّبت والدتك في رفضه فستخسرين رجل حياتك، أنا لا أرغمك ولكنك تستحقين شابًا مثله.

قلت: شقيقي.. إنه يفوقنا ثراءً ومستوى.

رد: الحب يعوِّض الثراء، ولكن الغنى والمستوى الاجتماعي لا يعوِّضان لحظة حب واحدة.

قلت: أخشى أن يذوب الحب فيما بعد ويعيِّرني بذلك الفارق.

رد ساخرًا: إذن تزوجي ابن خالتك فهو لن يفعل.

صحت: لا.. أريد جواد.

ابتسم فغطَّ قلبي في الخجل، وقال: إذن فهو شعور متبادل.. ممتاز.

وضعتُ عينيَّ تحت قدميه، و لم أستطع النطق بعد أن كشفت له ما بقلبي؛ فضمَّني إلى صدره وغمرتني مشاعر الدفء.. يا الله!.. إن لصدره تأثيرًا يقارب تأثير جواد.

قامت قيامة الهدوء في البيت عندما أخبرت أمي أنني لن أفكر في الزواج، تعلَّلت بالدراسة التي تحتاج جهدي كله، فلن أعيش ممزقة بين دراسة وزوج وأطفال، اتهمتني بكل الاتهامات، لعنتني بكل المذاهب، حرمتني الزهو بشعري الطويل بعد أن قطَّعته على يديها، لم يستطع أحد صد ذلك العدوان الهمجي عني، كان سامي يساندني ويطالبني بالصبر، وعندما يئس تمامًا لجأ إلى أبي كي يضع حدًّا لذلك التعذيب، وما إن تدخل أبي حتى اشتعل العالم كله، ولكنه استطاع تحريري وإنهاء ذلك الموضوع.

مرَّت شهور ولم تغفر أمي ما فعل سامي، وكعادتها صبَّت غضبها عليّ، كنت أتحمل في صمت إلى أن عاد سامي من سفره وفاجأ الجميع برغبته في الزواج من جلنار.

ثارت أمي ثانية، فهي لن تسمح له بالاقتران بتلك "الخواجاية" زرقاء العينين كما كانت تتصورها، لكن سامي استخدم نفوذه كذكر في إجبارها على الموافقة؛ فاستسلمت وسافر سامي بصحبة زوجته وتركني أتجرَّع كأس الذل أملًا في أن تنتصر إرادتي ذات يوم، أو أن ينقذني القدر.

عاد سامي يحمل طفلًا وعادت معه زوجة تعشقه، كنت أتحرَّق شوقًا لرؤية جواد؛ فقد مر عام كامل دون أن أسعد برؤيته.. تحقق أجمل أحلامي عندما جاء يزورنا بصحبة والده، لم أستطع إخفاء ابتسامتي عندما رأيته، ولا كبح دقات قلبي التي راحت تعزف في صخب.

ناداني والده بالعروس؛ فارتجفت كل مشاعري، وتعثَّرتُ في مشيتي وهو يراقبني بطرف عينه ساخرًا، وعدهم والدي ببحث الأمر؛ إذ أنني ما زلت في عامي الجامعي الأول، ولن يسمح لي أحد بهجران دراستي من أجل الزواج، فأخبره جواد أنه سيُشرف بنفسه على دراستي، خاصة أنه يسعى لنيل الدكتوراه من إحدى الجامعات هناك إلى جانب عمله الصحفي.

هكذا قهرتُ كل المشكلات، وبعد أن غادروا أخذت أهيِّئ نفسي لأن أكون عروسًا.

أفقتُ من نشوتي على صوت أمي التي ركلت بقدمها باب غرفتي وصرختي فيَّ: "لو كنتِّي فاكرة إنك هتتجوِّزي الواد الصايع أبو شعر ده تبقي غلطانة.. مش هتتجوزي غير ابن خالتك ولو مش هتتمدِّي في طول راجل طول ما أنا حية".

أطاحت كلماتها بصوابي، فقد ظننت أنها نسيت ذلك الأمر، واستنجدتُ بسامي الذي فقد سطوته بعد أن بذل كل ما يستطيع في سبيل إلهاء أمي وجعلها توافق ولو إلى حين، فشلت كل الجهود حتى بعد أن لجأ سامي كعادته إلى أبي.

كنت أشفق على أمي من المرض الذي جعلها لا تميِّز بين حق وباطل، ولكنها هذه المرة ملأت قلبي بالغضب لرفضها من أحب بعد أن قهر كل المسافات ليحصل عليَّ، لكنني من أخطأت، أنا من خضعت واستسلمت وتذلَّلت فاعتاد من حولي خضوعي، صممت أمي على الرفض،وصمم أبي وشقيقي على الموافقة، وأصبحت جلنار في موقف حَرِج فانسحبت إلى بيت والدها إلى أن يهدأ كل شيء.

ووجدتني كسيرةً، أقف أمام أعز أمنياتي ولا أستطيع مد يدي لالتقاطها، كانت المحنة الأولى التي أشعرتني بالضعف،

استنفد سامي كل حيله، ووقف أبي عاجزًا كعادته، وانتهى كل شيء بلحظة واحدة.

استسلمت لفراشي وسمحت له بأن يحتوي خيبتي ورغبتي في الحماية، يئست من حياتي وضنَّ عليَّ الموت، ظللت شهورًا أدعو الله أن يمحوه من قلبي ولكن لم يقبل دعائي، علمت أنه تزوَّج وسافر، فزادت رغبتي في نسيانه و.. نسيت.

بدأت التأقلم مع حياتي، قررت الكف عن التجهم بوجه العالم، أخذت أهتم بأمي ودراستي وأعدت علاقتي الجيدة بسامي وزوجته.. صمم سامي على أن أزوره ببيته الجديد بالقاهرة فلم أتحمس، ولكن أمي سألتني أن أذهب لأفرج عن نفسي بعد شهور الدراسة القاتلة.

كنت أجلس طوال اليوم أتأمل مشهد النيل من خلال الزجاج الذي لم أجرؤ على التخلص منه، ليمنحني القدر رؤية مباشرة للشيء الوحيد الذي يشفع لمدينة القاهرة صخبها.. رفضت الخروج، وتسمَّرت مع ابن شقيقي "أحمد" نشاهد قنوات الأطفال فقد سئمت التعامل مع الراشدين، يكفي أن يبتسم حتى يمنحني جناحان أحلق بهما في سماء السعادة، فعالمه الصغير ما زالت تحكمه قوانين البراءة والرأفة.

حضَّرت أشيائي لأعود إلى أمي رغم كل محاولات سامي لاستبقائي، كدت أستسلم لولا أن دق جرس الباب، ذهبتُ

لأفتح فاصطدمت به، ما زال وسيمًا، يقطر وجهه طيبة، لم ألتفت لمن معه؛ فقد شلت الصدمة مشاعري وحوَّلتني إلى خرساء.. حاولت ألا أحقد عليها، فهي لم ترتكب بحقي ذلك الجرم الذي يستحق فعل الحقد، تلك الشقراء بارعة الحسن والتي تحمل طفله بداخلها، منحتني ابتسامة فاستحق قلبي نيران لم يكفها وقود الدماء التي صعدت إلى عيني لتمنحها لون القهر، لو لم تُهْدِني أمي ذلك السكين لكنت أنا الآن تلك الشقراء التي لا تغادر عينيها الابتسامة، كان هادئًا رغم رَبْكَة المفاجأة، مد يده ليصافحني؛ فمنحته شرف مصافحة جثة تخلَّى عنها القدر، ابتسم فخذلتني ملامحي التي تعوَّدت على كظم الابتسامة، أخبرها أنني شقيقة سامي فاتسعت ملامح السعادة بوجهها وطالبتني بزيارتها.

شعرتُ أن العالم يضيق بحملنا معًا؛ لذا غادرت بدون أن يشعر أحد، رميت بنفسي بإحدى سيارات الأجرة، وطلبت من سائقها توصيلي إلى أي جحيم يحمل اسم قريتنا.

أغلقتُ هاتفي وأعطيت لنفسي حق البكاء، فرويت الطريق بين القاهرة وبيتنا، لم أتصور أنني يومًا سألتقي به بعد أن محوته من سجل ذكرياتي؛ فقد كنت أؤمن بأن من يموت لا يعود أبدًا.

اجتاحت الحمى رأسي؛ فرحمتني من عقاب شقيقي الذي أثار جنونه عودتي المفاجئة، خاصة عندما تأكّد للجميع أنني لم أُحْسِن بناء قبر جواد بقلبي فانفلق عند أول عاصفة لينشق عنه.. كلما حاولت نسيانه كلما زاد قلبي في عناده، لذا قررت اقتلاع قلبي وسحقه تحت إطارات الحياة الثقيلة، وأصبحت أختبر للمرة الأولى أن أعيش بلا قلب.. عشت حياتي عمياء أتحسس العالم ببصيرة يمنحها لي قلب ليس موجودًا، أَهَبُهم الدفء وأنا أتجمد، نُحِتُ فيما أردته، وشعرت بقوة جهلت أنها تسكن بين ضلوعي، أصبحت لا أخشى فراقًا ولا أهتم لوداع، حتى عندما زارتنا "جلنار" وهي ترتدي الأسود، وتعللت أنها تحتد على زوجة شقيقها الذي حرمها القدر متعة النظر لطفلتها للمرة الأولى، لم أحزن لموتها و لم أفرح، فقد فقدتُ ذلك العضو الذي يمنح الناس متعة الحزن وبهجة الفرح.

أنهيتُ دراستي، وتفانيت في الاهتمام بأمي وخدمة أشقائي إلى أن تزوجوا جميعًا، ومنحوني بيتًا بارد الأنفاس تنعق الوحدة بين جنباته.. ذات ليلة اشتدت علي الوحشة فدخلت إلى غرفة أمي لأقرأ لها بعض آيات القرآن حتى يمنحها النوم وسادته التي تأبى الخضوع إليها، ابتسمت عندما رأتني أمسك بمصحفي، وجلست تردد خلفي ما أقرأ كعادتها إلى أن توقَّفَت.. أكملتُ السورة وهممت بتغطيتها، لولا أنني وجدتها مستسلمة تمامًا،

وهي التي تلعنني دائمًا قبل النوم وحين الصحو، ناديتها: أمي.. أمي... فأجابني الصمت.. انتابني صقيع غريب وأنا أنظر إلى صدرها الذي سكن تمامًا، وضعت كفّي على قلبها الذي أعلن استقالته بعد عمل مُضْنٍ دام سنوات طويلة، شعرت بالوحدة واليتم أكثر، هاتفتُ أبي وأشقائي لعل أحدهم يكذّبني؛ فلا أتصور أن تنتهي حياة زاخرة بالمآسي تلك النهاية التي تفتقد الهيبة وجلال الحدث.. خذلني الصوت، فلم أتمكّن من الصراخ، وأبت الدموع أن تروي عينيّ فجلست بين أقاربي كصنم تخلى عنه سدنته وانصرف عن عبادته مريدوه،تساوَتْ أمامي كل الألوان، ومنحني ضباب الحدث رعشة سكنت ضلوعي.. انتهى العزاء، وملّت جدتي تلك الحياة فعادت لبيتها بعد محاولات مضنية لإقناعي بمرافقتها، ولكنني رفضت، فما زلت أعشق رائحة الياسمين التي تفوح صباحًا لتغرق العالم، ما زلت أحب أن أفتح نافذتي فتضرب وجهي نسمات الصبح التي قبّلها الندى فجاءتني تشتاق لمن تبثه فائض الحب.. غضب أبي عندما رفضت مرافقته لأعيش مع زوجته التي ستسعد حتمًا لوجود خادمة تحمل مؤهلاتي، ولم أهتم لغضبه، قررت ان أملأ وقتي بالدراسة، وبدأت فعلًا في عَيْش حياة جديدة تفتقد الأحداث المأساوية،حياة شكّلتُها فقط لإسعادي.

مرّت سنوات متشابهة لم أنجح في إحصائها، فقد فقدت إيماني بعلم الإحصاء، جلستُ في شرفة الياسمين أحاول مد جسور الثقة بيني وبينها ثانية، غرقتُ بين ظلالها أتأرجح بين

جمال العطر وروعة اللون، فجذب انتباهي صوت هامس ينادي باسمي، التفتُّ لأجده أمامي كملاك فار من أحد الكتب المقدسة، جلس بجواري ففقدت الإحساس بمن حولي، نسيت سامي الذي ألقى عليَّ التحية فلم أرد، وجلنار التي دخلت إلى البيت بعد أن يئست من تواصلي معها.

ظللنا جالسين كخيالَيْ ظلٍّ إلى أن أتت جلنار أخيرًا وطالبتنا بالدخول لتناول الغداء، كنت أتمنى أن أسترد قلبي الذي أقبرتُه قبلًا وأحاول بعثه الآن فلا أستطيع، تحوَّل طعم الطعام في فمي إلى طعم السكَّر عندما ابتسم وهمس في أذني: "اشتقتُ إليكَ".. كنت أظن أنه قتلني بقلبه عندما سمح لتلك الشقراء أن تنجب طفلته بعد أن حلمت أنا بحملها طوال حياتي، وتركني كل هذه السنوات بلا حبيب، شعرت بأنني أُفرِطُ في التفاؤل، إنها مجرد زيارة، ربما سئم جو المدن وأراد رمي ذاته بجنة الريف، ربما دفعه الإشفاق إلى زيارتي، أو ربما العادة؛ فقد اعتاد أن يشارك سامي كل نزواته، لا أدري كم من الأعذار اختلقها سامي حتى يتركني معه، ظللت جالسة مكاني ممسكة بكوب الشاي أتطلع إلى لونه عَلَّه ينقذني من ذلك الموقف الذي لا أدري له نهاية، همس ثانية: اشتقت إليكِ.

خذلتني الكلمات، وصفعتُهُ بصمت كاد يهلكه فأكمل: أدري أنك تشتاقين إليَّ ولكن يمنعكِ الخجل.

قلت: لم أشتق إليك.. فلم أكن أدري أنك ما زلت حيًّا.

قال: أقتلتيني؟

قلت: من يستبدلني بأخرى لا يستحق سوى الموت.

رد: ولكنك من قرر الفراق وليس أنا.

قلت: لا يقرر الفراق من لا يملك حق القرار.

قال: ربما أخطأتُ.. ولكنني أتيت اليوم لأرمم ما انهار من جدران علاقتنا.

قلت: ليس لديَّ ما أمنحه لك.

قال: بل لديك كل شيء.. لديك أنا.. ألا يكفيك وجودي بقلبك؟

قلت بيأس: وأين هو القلب؟ أتقصد ذلك الشيء الذي يضخ السم بشراييني والذي حولته إلى مقبرة لك؟ لقد تخلَّصتُ منه يوم رأيت السعادة تتراقص بعيني زوجتك.

نكَّس رأسه وطال الصمت إلى أن همس: ألا من وسيلة مشرِّفة للاعتذار؟!

قلت: وهل يجدي مع الذبح اعتذار؟

صمت.. فخرست دقات الحياة بداخلي، ثم قال: في معاركي لم أستسلم يومًا لخصم.

قلت: لا يوجد بيننا ما نختصم من أجله.

قال: سأموت إن افترقنا ثانية.

قلت: لقد متُّ من قبل ولم يهتزّ منك وريد.. لماذا أكترث لموتك أو حياتك؟

رد: لأنك تمنحيني الحب كل لحظة، وتجددين مواثيق غرامي كل صباح، كلّما نظرتِ إلى تلك الياسمينة تتذكرين لقاءنا الأول، ما زالت يدك تَحمل عبق قبلتي الأولى، لقد رأيت وجهك حين ناديتك اليوم، كنت كمن يحدق بصورة فوجد الأصل أمامه، لا تحاولي الكذب فأَنا أرى أهدابك الآن تحتضن وجهي.

ابتسمت ساخرة وقلت: ما زلت تحتفظ بذلك الغرور.. هل يمكن أن تتصور أن ترفضك أنثى؟

رد ساخرًا: لم تولد بعد.

- أنا الآن أرفضك.. هل تعي معنى هذه الكلمة؟

قال في هدوء: نعم.. تمامًا.

حزِنت لرده فقد تصورت أنه سيتَّحمل وقاحتي، وساد صمت تمنيت أن يقطعه فلم يفعل، فتيقنت أنني أضعته ثانية.. حاولت ألا أحزن ولكن خذلتني الشجاعة، إلى أن أمسك بيدي الباردة فمدَّها بدفء افتقدته لسنوات، أغمضت عينيَّ حتى يدرك أنني لم أر يده تحتضن كفي، وأن ما حدث كان خارج إدراكي.

قبَّل جبيني فتظاهرت بالموت، حاولت كبت تلك الرجفة التي سيطر عليها بضمة، حاولت التمرد وإعلان الثورة، لولا ذلك الشعور الذي اجتاح كياني وأشعرني بالدفء والأمان.

شعرتُ لحظتها أنني أنتمي إلى تلك الضلوع الحانية، وقررت ألا أسامح قدرًا حرمني منها كل تلك السنوات، استرجعت نفسي من بين ذراعيه، فابتسم قائلًا: ألم أقل لكِ.. نعم.. تمامًا..

أيقظتني كلماته، وساعدني كبريائه الذي يشعرني دائمًا أنني إلى جانبه لا شيء، ولكن سامي رحمني من البحث عن رد قاسٍ يناسب كلماته.

آويت لفراشي بعد ليلة حافلة، فسمعت طرقات خفيفة على الباب، انتابتني الهواجس، سألت عن الطارق فأجابني صوت سامي.. ابتسم عندما رآني بثياب النوم وطلب محادثتي بأمر مهم، أخبرني أنه أتى ليتمِّم أمرًا طال تأجيله، فقد أتى جواد ليلملم معي أشلاء حبنا الذي مزَّقَتْه أمي وتركتنا تعيسين يجمع بيننا الحزن.

في اليوم التالي جاء والدي، فعرض عليه سامي الأمر، فأبدى موافقته على الفوروكأنه كان ينتظر أي عابر سبيل ليخلِّصه مني، قرأوا الفاتحة، وأحضر لي خاتمًا لم يحلم إصبعي باحتضانه، لم أكن سعيدة، فقد شعرت أن هناك شيئًا ما يجثم على قلبي

كنذير شؤم اعتاد أن يرافقني، للمرة الأولى التي أتمنى أن أمنحه ابتسامة فتخذلني ملامحي، أردت بشدة أن أفرح وأن أعبر له عن سعادتي، ولكن يبدو أن حياتي لا تحتمل فعل الفرح.

لامني على تعاستي الظاهرة، وقال: رأيتك تقرأين الفاتحة وكأنكِ تقفين أمام شاهد قبري.

لم أرد، فأكمل: أتدرين شيئًا.. اليوم أشعر أنني فعلت في حياتي ما أريد، إن متُّ فلن أبالي، فقط دعيهم يبنون لي قبرًا قريبًا؛ فسعادتي في القرب منكِ.

قلت: لا تذكر الموت رجاءً فليس لدي قدرة على تحمل فجيعة الفقد.

قال: أتدرين.. أنا أحبك.. هلَّا نطقتِها من أجلي؟

قلت: كلا.. لقد علَّمتَني ألا أخرج ما بداخلي حتى لا يشمت غرورك بكبريائي.

قال: سأريق دماء ذلك الغرور تحت قدميكِ.

في اليوم التالي أخذني معه في جولة، فشعرت كم كنت يتيمة قبل أن أعرفه، ابتاع لي ثيابًا كثيرة وزجاجات عطر وهاتف فخم، فتيقنت لحظتها أن القدر قد صالحني أخيرًا.

عندما اقتربنا من البيت وجد مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة فتركني وذهب ليلعب معهم، انضم إليه سامي وسط

دهشة زوجته وذهولي، وقفت في شرفة المترل أراقبه يلهو وقد نفض عنه غرور الصبا وسطوة الشباب، راح يركض خلف الكرة في حرفية ومهارة وسط صيحات الصغار، فيرتج لصياح السعادة عالمي ومن قبل لم يهزه سوى الألم.

بعد المباراة اغتسل وطالبني بإعداد الطعام، دخلت المطبخ فتبعني وأخذ يساعدني، وكانت المرة الأولى التي يشتمُّ بها مطبخي عطر رجل، أصر على أن نأكل من طبق واحد حتى نتشارك بكل شيء، ولم يجد عارًا في مساعدتي في غسل الأطباق، رغم أنني حاولت منعه بكل الطرق؛ فشعرت بأن قلبي قد عاد ثانية.

ودعني فاشتقت إليه قبل أن يفارقني، وعدني بالعودة خلال شهرين ليمتلكني إلى الأبد، ظل طوال الطريق يحادثني، يضحك بصوت عالٍ ويتعلل بأن الطريق قصر للمرة الأولى، أخبرني أنه كاد يقترب من البيت وفجأة انقطع الخط.

شعرتُ أنني اشتقت إليه أكثر، كدت أتصل به لأطالبه بالعودة وعدم السفر لولا أن هاتفه كان مغلقًا، شعرت بوحشة رغم وجود سامي الذي فاجأني هو الآخر برغبته في السفرفورًا، وطالبني بمرافقته، لم يكن في حالة تسمح له بالنقاش فترك لجلنار مقود السيارة بعد أن كان يرفض دائمًا أن تقود زوجته السيارة

داخل حدود قريتنا، لا أدري لم نكّس رأسه وملأت الدموع عينيه، وصلنا للقاهرة، كادت جلنار تنحرف بالسيارة حتى تصل للطريق المؤدي إلى بيتهم لولا أن طلب منها سلوك دربًا آخر، إلى أن وجدنا أنفسنا أمام مستشفى "أدهم" شقيق جواد وجلنار.

ظننت أن هناك ألمًا ما يعصف به ففضّل الذهاب إلى المستشفى أولًا، ولكنني اكتشفت أن المسألة أكبر من مجرد ألم... ففي الطابق العلوي تخلّى عني سامي وأخذني أدهم إلى مكتبه وقد تحولت ملامحه الوسيمة إلى قسمات أخرى لا أعرفها.

جلس أمامي في هدوء وراح يبحث عن الكلمات إلى أن عثر عليها فقال: أعلم أن جواد كان سعيدًا جدًّا بخطبتك، لم أره في حياتي سعيدًا لهذه الدرجة.

حاولتُ الابتسام، ولكن ضاعت الابتسامة أمام هيبة الموقف فأكمل:-تعرَّض جواد اليوم لحادث.. ملأت الدموع عينيه فأكمل: أعلم أنه من الصعب على الجميع - وعليك بوجه خاص - أن يتقبلوا ما حدث، ولكنه قضاء الله وقُدِّر لنا أن نمتثل له.

قاطعته بسرعة: أي قضاء؟

قال: توفي جواد.. إثر حادث سيارة.. لا ندري سبب الوفاة بالتحديد.. ولكن خلال ساعات سيتضح كل شيء.

إذن.. مات جواد.. تكاسلت دقات قلبي وتباطأت، اجتاحت كياني زلزلة قوية جعلتني أنظر إلى اللاشيء.. وكأنَّ هذا اللاشيء هو ما سيكذِّب لي ما يحدث، كذَّبَت الخبر بداخلي كل خلية، شعرتُ بأن جليد العالم كله قد أحاط بي.. لم أُفِق سوى على صوت أدهم وهو يقول: نهاد.. هل أنتِ بخير؟

أجبته بصوت طغت عليه الصدمة: أي خير يا أدهم؟ لقد كنت أمس عروسًا مضمَّخة بالعطر، والليلة أمسيت ثكلى تبكي حب حياتها.

قال: لا أدري كيف أصبِّرك.

كنت غاضبة.. يسيطر القهر على حواسي ويمنحني طاقة تكفي لتدمير العالم، جلست أستمع لما يقول وعقلي يئن مكذِّبًا إلى أن قاطعته قائلة: هل يمكن أن أراه؟

رد: قومي معي.

إلى الآن يقشعر بدني عندما أتذكَّر، رأيته ممدَّدًا.. اقتربت منه فملأني خوف العالم عندما تصورت أن تلك الملاءة البيضاء تغطي جسد حبيبي وتمنعني عنه، كم تمنيت لو أنني كنت أحلم،

خشيت إن رأيته أن أفقد عقلي، ولكن أدهم وفّر عليَّ تلك المشقة ورفع عن وجهه الغطاء.. ما زال وسيمًا لم يسرق الموت بهجة ملامحه، مهابًا رغم عينيه المغمضتين، تمنيت أن أبكي، لكنني خشيت أن يحزن إن رآني أبكي، أزرار قميصه المفتوحة تكشف عن صدر طالما تمنيت توسُّده، كم حلمت أن تعتصر هاتان الذراعان ألمي، أمسكت بيده المستسلمة فلم يحتضن يدي كعادته، قبَّلت كفه واقتربت من أذنه وهمست والوجع يغلف كل مشاعري: جواد.. قم.. جواد.. أحبك.. أحبك... أهكذا انتهت قصتنا؟.. بالله.. لم تقتلني النهايات؟!

تجاهلتُ دموعًا لفظتها عينا أدهم، مرَّت دقائق أو ساعات أحدِّق بوجهه ولا أستطيع إبعاد عينيَّ عنه، إلى أن طالبني أدهم بمساعدته في نزع خاتم الخطبة من يده بعد أن أعيته المحاولات.. أمسكتُ بيده وقبَّلتُها.. وأمسكت أصبعه ونزعت الخاتم بسهولة، فاحتضنه أدهم وضج بالبكاء.

ليت سبب الفراق كان أي شيء سوى الموت.. كنت لأتحمل أملًا في لقائه يومًا ولو صدفة، مات القمر.. رباه كيف يغطي التراب وجه القمر؟! كان يتوق لأن يسمع مني كلمة أحبك و لم أنطقها أمامه إلا عندما تأكّدت تمامًا من أنه قد فارق الحياة.. كم كنتُ مجرمة! ظللت أقضي أيامي أحاول أن أعلو فوق غضبي ولكن.. يعميني الغضب.. كان كالبدر.. دوَّى نوره بقلبي كطلقة رحمة.. وفجأة أفلت فتركت لي قلبًا يوجعني.. ورصاصة... كان نجمًا ساطعًا يعشقه غروري..

فهوى وهويت معه.. قضيت أيامي أحاول النسيان.. أحاول أن أكرهه حتى أخفف جحيم افتقاده.. أفسِّر ابتسامته على أنها وسيلة لخداعي.. وكرمه الجارف على أنه شَصٌّ لاصطيادي.. وموته وسيلة للتخلص مني.. آه.. كم افتقدته.

انحسر عن ذهني سيل ذكريات طالما عذبتني عندما دقَّ هاتف سامي الذي ردَّ في سرعة وكأنه يبحث عن شيء ما يخرجه هو الآخر من مدن الذكريات.. كان نديم.. يهاتفه ليطمئن عليَّ، أشرتُ له حتى يدَّعي عدم وجودي.. فما زلت أشعر أنني بين ذراعي جواد!

طالبني سامي بالسفر معه حتى تهجرني تلك الرؤى الغريبة وأستعيد بفضل تغيير المكان حياتي كما أعرفها، وافق نديم.. فوجدتها فرصة مناسبة لاقتلاع بسيمة من حياتي.

منذ رحل جواد انتهت علاقتي بجلنار، كانت كلما رأتني تبكي فقرَّرت أن أرحمها، لم أعد أحادثها، ولم تحضر حفل زفافي على نديم، تمنَّيت أن أخبرها يومًا أنني لم أخن جواد عندما تزوجت غيره ولكنه القدر الذي وضعني أمام سيل نديم فجرفني رغمًا عني ليرتِّق حياتي المهلهلة.

كانت المرة الأولى التي نلتقي فيها منذ سنوات طويلة، أمسكَتْ بيدي ووقفت تتطلع إلى وجهي ثم قالت: ما زلت أشعر بذلك الحب يغمرني عند رؤيتك.. لِمَ ابتعدتِ كل هذه السنوات؟

قلت: لا أتحمَّل أن أراكِ تبكين.

قالت: افتقدتك جدًّا.. ولن أسامح هجرانك.. أنتِ الشيء الوحيد المتبقّي من جواد.

قلت: لكنني أستحق كرم الغفران.

احتضنتني فشعرت كأنه حضن أمي الذي لم أحصل عليه يومًا، يطالبني بطرح كل أوجاع الماضي خلفي والنظر فقط إلى المستقبل، وسألتني أن أعيد ترتيب أولوياتي والمحاربة من أجل حياتي، لم تدرِ أنني ظللت أحارب من أجلها عمري كله إلى أن نسيت كيف يكون السِّلْم.

لم يكن سامي مقتنعًا بما حكيتُ له، كان واثقًا من أنني مريضة، وراح يستشير الأطباء ويعرضني عليهم، ويدفع آلاف الدولارات في البحث عن علاج.. وهو لا يعي أن ما أمر به حقيقي وليس محض وهم، بعد أن يئس وأكد له الأطباء سلامتي، قرر أن يصطحبني في جولة سياحية.

جلست في القارب أقرأ كل ما أحفظ من القرآن حتى أتخلص من تلك الرهبة التي لازمتني منذ رأيت الماء، استندت إلى كتف جلنار أبحث عن الأمان، وما إن شق القارب قلب الماء حتى شعرت برجفة تجتاح جسدي، وسمعت صوت جلنار تسألني: بسيمة.. مالك؟

رفعتُ عينيَّ لأخبرها أنني لست بسيمة، لولا أن رأيت وجه ظريفة الشاحب وهي تهزني، وأنا أحاول التخلص من ذراعيها اللتان تقبضان عليَّ، صرختُ بها: سيبيني يا أختي.. أنا روحي هتطلع.

رد أحد أشقائي وهو يحرك مجدافي القارب: بالرَّاحة عليها يا ظريفة.. إنتي محلّقة عليها كده ليه؟

ردت: يا أخويا مش شايفها بترتعش إزيّن؟

قال: آدي نهاية اللي يمشي ورا الحريم.. قال لما تعدي البحر هتخف قال.

قلت: أنا عايزة أروح يا أخويا.. مشّيني من هنا.

عدتُ إلى البيت الكبير وقد انتهت رغبتي في العيش، نظرتُ إلى أبي الجالس وحده ماسكًا بمسبحته، مطرقًا كأن نيران العالم تتوقّد في قلبه، ارتميت تحت قدميه وقلت: الله يخليك يا آبه ما تجوِّزْنيش سعيد ابن عمتي.. أبوس إيديك ورجليك.

قال: أنا إديت عمتك كلمة يا بسيمة.. وأنا ما برجعش في كلمتي.

قلت: يا آبه اشتريني.. لو اتجوزته هموت.. أنا ما اعرفش أعيش عند عمتي.

رد: كنّي هتعيشي عندها إزيّن أيام أحمد الله يرحمه؟

ردت أمي: يا حاج المرحوم أحمد كان أمير ماكانش شراني زي سعيد، بتّك عمرها ما هتعرف تعاشره.

رد في غضب: والله عال.. أنا مش هعرف أحكم بيتي والّلا إيه؟

رد أحد أشقائي: يا آبه بِتّك حلوة وبِتّ أصل.. ألف من يتمناها.. بلاش منها الجوازة دي.

صرخ أبي قائلًا: إنت عايزني أغدر بابن عمتك؟ مش كفاية واحد مات؟ عايز عمتك تسلف على عيالي يموتوا؟

ووجدتني أبكي وقد تصاغرت الدنيا في عينيَّ، ها هو أبي يرميني خوفًا من دعوة تلفظها عمتي ويصاب إثرها إخوتي، ليته باعني من أجل المال، كم هو مؤلم أن تشعر بأنك مجرد كبش فداء لا أحد يهتم بك، قمت أبكي وأدعو الله أن يخلصني من ذلك الموت الذي أعيش تفاصيله منذ راح "أحمد"، ثلاث سنوات أنتظر أن تنهي عمتي حدادها لأتزوج ابنها الآخر، كنت أتمنى أن يطول حدادها فيبتلع عمري.

لم يكن هناك عرس، لم أرتد الثوب الأبيض ككل الفتيات، أرغمتني عمتي على ارتداء ثوبًا أسودَ، مزَّقت ثيابي الملونة قبل أن أدخل بيتها، وأهدت "برام الوفق" إلى القطط والكلاب

الضالة، أمسك عمَّهُ بيدي لكي يدخلني البيت للمرة الأولى في ظلام دامس لا يقطعه سوى ضوء خَجِلٍ يصدر عن "لمبة يد"، وضعتُها في طاقة تتوسط حائطًا بعيدًا، جلستُ أنتظر عودة "العريس" من الحقل، أتأمَّل صراخ عمتي وبكاء بناها، لا أعلم أي جحيم تسبب لي بهذا الويل، تمنَّيت لو تحليت مرة واحدة بالشجاعة فأترك لهم بيت الشؤم ذاك وأعود لأبي، كدت أفعلها لولا دخل سعيد فجأة.. لم يسلِّم ولم يبتسم كأحمد، وطالبني بإعداد العشاء، أشارت لي عمتي إلى المطبخ فقمت أجرجر ذلِّتي، جلبت له طبقًا من العدس ورغيفًا فتعشَّى، جهزت له كوبًا من الشاي فوجدته نائمًا فحمدت الله أنه لم يُقدِّر مواجهةً بيننا في ليلتنا الأولى.

عند الفجر أيقظتني عمتي، طالبتني بأن أتسلَّم مهامي كربة البيت، داستني إطارات الحياة فأصبحتُ لا أفرِّق بين نهار أنوءُ بحمله أو ليل أتمنى ألا يأتي؛ حتى لا أضطر إلى تلك المواجهة التي تشعرني بأنني لا شيء، كانت الحياة في بيت عمتي جحيمًا لا يطفئ لهيبه سوى صبر أرسله الله لي، لم أعد أشعر بأنني أتنفس، كل شيء من حولي يغلي، عمتي الغاضبة دائمًا والتي لا أدري من أين لها بكل هذا الغضب،وولدها الذي يشعرني بأنني خلقت فقط لأُهان.

كنت أعيش حيث لا رحمة، أحمل طفلًا بداخلي، وأحمل عبء العالم كله فوق كتفي، أبحث عن ذرة شفقة في عالم ألغى عملة الخير واستبدلها بنواميس الكراهية، لم أدرك أن سعيدًا يحمل بداخله كل تلك الطاقة لإذلالي إلا عندما ذهبت إليه أبكي.. فقد صحتُ في قهر: أنا ما عدتش هستحمل اللي أمك بتعمله فيَّا ده، شوف لك حل.

رد ببساطة: ما لها أمي؟

قلت: بتقول إني بسرق اللبن وأنا بحلب البهايم.. من إمتى بقى إن شاء الله؟

قال: وإيه يعني لما أمي تقول كده؟

قلت في غضب: شوف يا سعيد.. أنا متربيَّة في بيت خير.. وإنت عارف خالك وربايته فينا.. ليك مني يمين المصحف.. بس قبلها توديني عند أبويا عشان ماعادش لي عيش هنا.

قال في غضب: العيشة هنا اللي مش لادَّه عليكي والّلا أنا مش عاجبك؟ إياكي تكوني فاكرة إني مش عارف كُنِّي عاشقة مين قبلي؟ واللي لو كان هو هنا دلوقتي كان هيبقى كلام أمي على قلبك زي العسل؟

جلستُ مكاني أتطلع إليه، أحاول التشبث بما تبقى من كرامتي التي لم يعد لها وجود منذ داسني أبي، لملمت ثيابي

وذهبت إلى أبي باكية فلم يهتز لبكائي، أهانني وطالبني بالعودة إلى بيتي حتى لا يتحمل عار طلاق يودي بسمعة شقيقاتي.

رفضتُ العودة فلم يكن بالحياة هناك أي إغراء أضحّي من أجله بكرامتي، رحِمني ذلك الجنين من اعتداء جسدي؛ لذا اكتفى بإهانتي، ظللت بعدها ثلاثة أشهر لا أغادر غرفتي إلى أن جاءني هو ذات مساء يطالبني بارتداء ملابسي لأعود إلى بيتي بعد أن أوفد سعيد أعمامه ليعيدني إليه.

لم أرد فقد زهدت كل حديث، وقمت أجرجر من خلفي قهر أبي أن يفارقني، لم أبك فقد قررت أن أعيش حياتي، ليس لأنني أحبها، ولكن لأن العيش فرض عليَّ، لم أعد أحزن عندما تتهمني عمتي بسرقة دجاجة ما أو بعض السكر فقد اعتدت طباعها، سحقت قلبي تحت ثقل أوجاعي و.. عشت.

سافرت فهاجرت معها نبضاتي، وظللت أترقب ذلك اللقاء الذي سيجمعنا بعد عودتها، أجهز كل يوم مائدتي بطعامها المفضل وزهورها الأثيرة، أضع دائمًا أسطوانة أخبرتني يومًا أنها ساحرة، انتظرتُ إلى أن سئمني الانتظار، ومنحني طاقة للوجع لا تنضب طاقتها، اشتقت لابتسامة ترسمها ملامحي عندما أباغتها وهي تتزين لإرضائي أو تبدِّل ثيابها لإغرائي، اشتقت لغيرتها الخرساء التي دومًا تسعد كبرياء الذكر بداخلي، تمنيت لو هاتفتني لتطمئنني أو حتى لتعاتبني، لكنها لم تتذكَّر أنها التقت بي يومًا، شعرت بالإهانة عندما تجاهلت سنوات طبعتها على قلبي ذكرياتها فقررت تحريك ذلك الماء الراكد الذي احتلَّ جدولنا.

جلستُ أمسك بهاتفي أدعو الله أن يمنحني شجاعة المواجهة فلم أستطع.. جلست أتطلَّع إلى شاشة الهاتف وتعجز أناملي عن معانقة الأرقام، استلقيتُ واحتضنت الهاتف فقط لأنه يحتوي رقمها معنونًا بكلمة "حبيبتي"..

بعد قليل دقَّ معلنًا رغبة أحدهم في إزعاجي، تكاسلت ثم غلبتني التمنيات، كان هو.. سامي.. بسرعة أجبت.. صوته المتعثر أشعرني بالخطر، أخبرني أنها غادرت عالم نهاد واستوطنت ذلك العالم الآخر ثانية.. فظننت أنه قد عاقر خمرًا أو أنه أصيب

بشيء لم يكتشفه علم الطب بعد.. تحدث كثيرًا لكن كلامه افتقد واضح المعاني.. وفي النهاية طالبني بالسفر، ذهبت إليها وقد تشوَّقتُ لأن أقبل جبينها كما أفعل دائمًا عند غيابي، شعرت بخيبة الأمل عندما لم تهب من فراشها لتعانقني، جلست أستمع لصوت أنفاسها الهادئ.. ووضعت رأسي على صدرها لأبكي.. أدمنتُ رائحة دموعي المختلطة بأنفاسها والتي تمنح قلبي جزءًا من الراحة أقنع به نفسي.

"إنها ما زالت حية.. وذلك في الوقت الحالي يكفي".. قالها سامي وهو يتطلع إلى جسدها الممدد أمامه؛ فقلت وقد قتلني الوجع: لكنني لم أعتد تقبيل جسد ميت من قبل، مجرد وجودها يفتك بصبري، يدفعني دائمًا إلى نسيان أي شيء وتطويقها، لا أتحمَّل أن أراها جسدًا فقط، فقد عوَّدتني على مبادلة الشعور.

كنت نائمًا على الفراش المقابل لها عندما التقطت أحاسيسي شيئًا يغلي بداخلها، قمت لأستطلع ما يحدث فوجدت وجهها غارقًا في العرق، وجسدها يرتجف، وصدرها كغريق يعلو ويهبط مستنجدًا.

خلال لحظات كان الأطباء قد نقلوها إلى العناية الفائقة، وهناك جلستُ أمام الباب وقد منحني القدر أقوى ضرباته، كنت أدرك أنني أفقدها، ولم أجد سببًا ما يجعلني أتحمل مصيبة

فقدالها.. أعلم ألها إن رحلت ستسعد، ولكن أنانيتي كحبيب ما زالت تأبى أن تسعد بدوني، إن راحت سيهبها الرحيل أجنحة ترفرف بها في سماء الخلود، ولربما تتذكر قدر الخيبات التي أصابتها في حبي، فتفضل عليَّ آخر.. لا.. لن أسمح لآخر أن يأخذها وإن كان الآخر هو الموت، فليأخذنا معًا فلم أعتد بعد هموم الفراق.

ابتسم الطبيب وأخبرني ألها بخير، فلم تخدعني ابتساماته وظللت جالسًا مكاني إلى أن رأيتهم يعيدولها إلى غرفتها.. لم أصدِّق، شاركتها الفراش، احتضنتها وقد شعرت بأنني شهدت بعيني أمي، لهج لساني بالحمد؛ فقد مدَّني الله للتو بسبب قوي لأعيش.. أنصتُّ إلى أنينها القريب، فسعدت، ولأول مره يسعدني الأنين، أغرقني النعاس، فأفقت على يدها تتخلل شعري، فشعرت بأنني اليوم على موعد مع معجزة.. جلستُ أراقب ملامح وجهها المتألمة إلى أن مللت الصمت فناديتها: هاد.. هاد... غمغمت بصوت ضعيف، فكررت النداء، بعد قليل فتحت عيناها وابتسمت في ضعف، فرسم العالم من حولي وجه ابتسامة.. طالبتني بأن تراه، رجتني فوعدتها، لا أدري من هو الذي أفاقت فقط لتعلن رغبتها الجارفة في رؤيته، كرَّرت طلبها فسألتها: من هو؟ فمنحتني أغرب جواب : أريد أن أرى طفلي.. فمنذ وُلِد لم يسمح لي أحد برؤيته.. نظرت إلى سامي الذي منحتني ملامحه لون الذهول، وسألتها: أي طفلٍ يا

حبيبتي؟ صرخت: طفلي.. أحمد.. لقد وعدتني بأن نسميه أحمد.. قال سامي: نهاد.. حبيبتي.. صرخَتْ: لست نهاد.. لست نهاد.. ولم أكنها يومًا.. أين طفلي؟ لم يجد أحد تفسيرًا لما يجري، ولم نبحث عن تفسير عندما عادت لطبيعتها ونادتني بحبيبي ذات مساء، بينما نتناول عشائنا على ضوء الشموع، سألتها عن سر الصغير الذي كانت تسأل عنه، فأجابت بأنها لم تسأل عن أي صغير، فسألتها : حبيبتي.. ألا تشتاقين لطفل يمنح حياتنا مرح الطفولة؟ قالت: لا أحب الأطفال.. قلت: ولكنني أتمنَّى أن احصل على طفل منك، يحمل ملامحك وعنادك وذلك السحر الذي تشعُّه عيناك.. ردَّت: لن أجيد دور الأمومة، ففاقد الشيء لا يعطيه.. قلت: حبيبتي.. أنت أمٌّ فعلًا، رأيتك تتعاملين مع شقيقاتي وأشقائك، ومعي.. أنتِ أمٌّ بطبيعتك فلا تحرمينا ذلك الترف.. ردَّت: حبيبي لست في حالة تسمح بمناقشة هذا الأمر..

كنت أبحث عن شيء يسعدها، وقد أمست متكدِّرة دائمًا، لا يغير كدر مزاجها شيء، أتأمَّل ملامحها فأشعر بأنها ليست هي، صورتها، طريقة تصرفها ليست زوجتي.

سبقتُها للفِراش، بينما جلست هي مع زوجة شقيقها، اغتال الغضب صبري، ولكنه راح عندما رأيتها تدخل مترنِّحة وكأنها سكرى، تجرَّدت من كل شيء واحتضنتني.. شعرت بأنني أرغب في البكاء بين ذراعيها، فلم تمنحني وقتًا للبكاء، فاجأتني

طفلةٌ صغيرة تناديني من بعيد: بابا.. بابا.. حاولت أن أتبيَّن من هي، اقتربْتُ منها فابتعدت وظلت تبكي وتناديني، ظلَّت تركض في أرجاء البيت المظلم وأنا أحاول مساعدتها، إلى أن وقفت فجأة واستدارت لتواجهني فصرختُ.

علمتُ أنه كان كابوسًا مريعًا عندما رأيت نهاد وسامي يجلسان بجواري ويستفسران عن سبب صياحي، حمدت الله عندما تأكدت أنه انتهى، وأخذت أتأمَّل وجه نهاد وقد سيطر عليَّ الجزع، ناولتني كوبًا من الماء فأمسكت بيدها لأقبِّلها وقد تيقَّنْتُ أنني أكاد أفقدها.. في صباح اليوم التالي جلست أتناول إفطاري مع سامي، شعرت أن هناك شيئًا ما يدفعني لمصارحته.. فانتظرت إلى أن جاء بالشاي وبدأت قائلًا: سامي.. هناك ما يزعجني بشأن نهاد.. قال باهتمام: ما الذي يزعجكَ؟ قلت: بالأمس رأيت طفلة ما تركض في سراديب بيت مظلم، فلاحقتها لأجد.. صمتُّ فلم يطاوعني قلبي فسألني: ماذا وجدتَ يا نديم؟ قلت: تلك الطفلة كانت نهاد، كانت تحمل وجهًا ميِّتًا وعنقًا تسيل منه الدماء.. أغمض سامي عينيه لقسوة المشهد، وقال: يا الله! وماذا يعني ذلك؟ أجبتُ: لا أدري.. هناك ما يؤلم نهاد.. ولكنني لا أعلم ما هو، ربَّما تسبَّبتُ أنا بجزء من ذلك الألم.. لكنني لا أستطيع مساعدتها.. فهي غامضة.. أنتَ شقيقُها.. وهي تحبك.. أرجوك ساعدني.. كيف أحرِّرها مما يؤلم وأعيدها إلى عالم السعادة.. إنني أتقطَّع

لرؤيتها هكذا.. كنت أراقب وجهه الذي فارقَتْه الابتسامة ولوَّنه لون غريب.. إلى أن قال: لا تحمِّل نفسك ذنب ما تمر به نهاد.. فقط ساندها واصبر إلى أن تنتهي تلك الأزمة.

طاردتني تلك الطفلة كلَّما أغمضت عينيَّ إلى أن حرمتني رحمة النوم، وشعرت أن استنجادها المتكرر بي ليس محض صدفة، لجأتُ إلى أقراصٍ تمنحني وهم النوم الهادئ، فلم تمنع تلك الطفلة من استعطافي، ومَنَحَتْها وقتًا إضافيًّا لمضايقتي.. منعتُ نفسي من النوم ثلاث ليالٍ إلى أن أتت نهاد ووضعَتْ رأسي على صدرها وراحت تغنِّي أغنية ما، أغمضتُ عينيَّ فشعرتُ بأنني ارتكبتُ جرمًا كبيرًا عندما فعلت ذلك، فتحت عينيَّ لأتطلَّع إلى وجهها الجميل، فشاهدت ذلك الوجه الميِّت ثانية وتلك الدماء تتساقط من عنق نهاد هذه المرة فصرخت!.. كان من الصعب أن أتصرف كطفل يطارده الجزع دائمًا، ولكنني استسلمت للخوف، كنت أخشى أن أفقدها، لذا جسد لي الخوف أقسى كوابيسي، احتضنتني ثانية وجلست تقرأ عليَّ آيات الرُّقيا إلى أن خطفني الوسن.

منذ طفولتي وأنا أفتقر إلى سبب يجعلني أتمسَّك بحياتي، وعندما التميتُ لنديم خُيِّل إليَّ أنني اهتديتُ لذلك السبب، منذ هجرتني بسيمة وأنا أشعر بأنني قطعة منه تخلَّى عنها، وترغب بقوة في العودة إلى ضلوعه، يا لقدرنا نحن النساء!.. لم خلقنا الله من أضلاع الرجال؟! كم تمنيتُ ألا أخلق من ضلع رجل، كم أتألَّم لذلك القدر الذي جعلني ناقصة دومًا، لا يكملني سوى رجل، لا أدري ما الذي حوَّل حياتنا إلى مسرح لتلك الأحداث الغريبة، كل شيء من حولي يشير إلى أن عالمنا تتدخل به قوًى أخرى، وكم كنت أتجاهل وجود القوى الأخرى.. عندما يغمض نديم عينيه ينتابني الخوف أن يسيطر عليه ذلك الكابوس ويقتله، يخشى دومًا أن يسرد لي تفاصيله رغم أنه لا يخفي عليَّ شيئًا.

عُدنا إلى مصر نحاول استرجاع ما فقدنا، تعاهدنا من جديد أن تحكم حياتنا قوانين الحب والتفاني والتضحية من أجل الآخر، وكنت أثق وأنا أضع يدي تحت يده أن ذلك الآخر سيكون دومًا أنا..

صعب أن تبحث عن الراحه دومًا وعندما تجدها تذهب فجأة وكأنها لم تكن، وقد بلغ التعب مني درجة أصبحت بها

شبه ميتة، أبحث عن أي شيء يمنحني الاستقرار ويهب زوجي امرأة عادية، تنتظره دومًا متزيّنةً من أجل لحظة حب، فقد خشيت أن يسأم نديم دور الرجل الوفي ويرمي بي إلى أدغال الهجران، فيجعلني فريسةً ملٍّ القهر التغذّي على قلبها.

لا أدري كيف تسلبني بسيمة روحي وتحوّلني إلى جثة تفتقد الحياة، كنت في البداية شغوفة بتلك الأشياء الجديدة التي تمنح حياتي لذة المغامرة، ولكنها الآن لا تمنحني سوى الوجع؛ لذا رغبت بالتخلي عنها، وجلست أبحث عما يخلصني من ذلك الاحتلال.. لجأت إلى إحدى قريباتي فعرضت أن تستشير أحد رجال الدين، والذي عزا ما بي إلى جنٍّ ما، ونصحني بقراءة القرآن والطهارة التامّة، ونفّذت ما أمرني به.

مرّت أيام طويلة، خلْتُ فيها أنني استعدتُ حياتي، قضيتها أحاول تعويض نديم الذي رافقني بصبر وتحمّل كل هفواتي..

كنت أصلي، فسمعتُ صوت جلبة فَتَكَتْ بصبري، جَرَيْتُ على مصدر الصوت، فوجدتُ شقتي قد تحوّلت إلى بيتٍ ريفي قديم، صاحت بي إحداهنّ: تعالب يا بسيمة يا أختي عمّتك عايزاكي.. تسمّرتُ مكاني محدّقة في محدّثتي فأكملت: يا بت خالي عفا الله عمّا سلف.. دي بتموت وعايزاكي يمكن تسامحيها.. قلت في حدّة: هي حالفة عليَّ ما ادخل أوضتها..

ردَّت: يا همي! ليه؟! قلت: كانت خايفة أسرق حبَّة سكر من الأوضة ولّا حبَّة شاي.. قالت: ماتزهقيش هي عقلها كده، ودلوقتي هي بين إيدين ربنا.. ادخلي شوفيها واستغفري لها.

قلت: تعرفي يا سنية هي عملت فيَّا ياما قوي.. عيِّشتْني أنا وعيالي في الغضاض والمر.. بس صعبان عليَّ أدخل ألاقيها راقدة كدة.. تساقطت الدموع من عينيَّ غزيرة، فغسلتُ غضبي منها، دخلتُ غرفتها فرأيتها مسجاة على فراشها، اقتربت أكثر فنظرت إليّ وقد احتُبِست في حلقها الحروف فخرجت بلا كلمات، رفعت يدها لتشير إليّ فلم أفهم إشاراتها، فنظرت إلى القِبلة فأحضرتُ لها إناء من الماء الدافئ لأساعدها فتتوضأ، جلست بجانبها عدة أيام إلى أن فارقت روحها الجسد، دفّت بقلبي الأحزان؛ فهي رغم كل ما فعلت تحمل نفس دمي، ورغم كل ما قاسيتُ لم أنسَ أنها من منحتني أحمد..

رحلت عمتي فهدأ البيت قليلًا، وهي من كانت تدق طبول الحرب دومًا، انشغل سعيد في أحزانه و لم يعد يشعل العالم لمجرد كلمة، كانت عمتي (رحمها الله) تنتظره دومًا أمام غرفتها وقد شدَّت رأسها لتتلو عليه جرائمي وجرائم أولادي، فينال منه كل فرد على حسب قدره، وعندما يسألها: "اتراضيتي كده يا أمَّه؟".. ترد قائلة: "لع".. لا أتصور أنني سأفتقدها كثيرًا.

كنت أراقب سعيد أحيانًا وقد ترك غرفتنا في منتصف الليل وذهب لغرفة أمه وجلس بها يبكي وكأنه يبكي القهر الذي فارقه، والذي حرمه الأسباب التي قُدِّر له أن يبطش بنا لأجلها.. دخلت عليه يومًا وهو ممسك بمسبحتها، ساهمًا كأنما فارقته روحه وتركته هكذا بلا حراك، سألته أن يقوم ليهب جسده بعض الراحة فسألني أن أسامحها.. سقطت كلمته على قلبي كسجِّيل و لم أستطع الرد، كيف أسامح وقد علَّمتني كيف يكون الذل، كيف أفعلها وهي التي أطعمتني ويلًا فاضت به أحشائي وحرمت أبنائي الرحمة، كيف أسامح من منحتني زوجًا لايؤمن بكوني بشرًا؟ من علَّمته أن يحتقرني ويمنع عني كل ما اشتهي.. لا.. ولن أسامحها.. لن أمنح أبي هو الآخر نكهة الراحة عندما أنسى أنه من قذف بي لذلك الجحيم.

وقفتُ أمام المرآة الصدئة أتأمَّل وجهي الذي أنْسَتْهُ الهمومَ نضرة الصِّبا فلم يستمتع بها، فجاء الهرم ليجبره مستسلمًا أن يرسم عليه لوحاته.. أين ذلك الشعر المائج الهادر الذي يُغرِق من يراه في بحار الرغبه في امتلاكه؟ لم يعد كتاج الجنِّيات، صار تاجًا للمقهورين، أمسكت بضفيرة أحاول نقضها ففاجئتني "نميرة" - إحدى بناتي - قالت: يا أمه إنتي واقفة قدَّام المراية وسايباني؟.. قلت وقد تبخَّرت كل أحلامي: ما لك يا نميرة؟ ردت: يا أمه عمتي قالت لفاطمة أختي إن أبويا هيجوِّزني لابن المحمدي.. انتفضت شراييني وقلت: ناديلي فاطمة.. جاءت فاطمة تجرجر عروس الطين التي صنعتُها لها فسألتُها: بت يا

فطُّوم.. هي عمّتك قالت لك إيه على نميرة أختك؟.. قالت وهي تلهو: قالت إن أبويا هيقرا فاتحتها على ابن المحمدي.. وإهم هييجوا حدانا الليلة.. شعرت بأني قطعة من جحيم، وأنّ ما حدث معي سيتكرر مع ابنتي، انتظرت أن يأتي سعيد من الحقل حتى استعطفه، ولكنني ما إن نطقتُ حتى ضربني وضرب نميرة، وحوَّل غضبه إلى نيران التهمت كل من بالبيت، كسر ذراعي، وزركشت الكدمات جسدي، فلم تحضرني سوى كلمة واحدة.. "مِنّك لله يا آبه".. فقد كان هو من تسبب لي بهذا الويل.

تزوَّجت نميرة رغمًا عنها وعني، وتحوَّلت الشجرة المحمَّلة بأشهى ثمار الأنوثة إلى أطلال، كلما زارتني بكت، وكلما زرتُها لعنتُ حظًّا عاثرًا أورثتها إيَّاه.. إلى أن أتتني يومًا وقد استحال الوجه الندي إلى مقبرة، كانت مريضة تعاني شيئًا ما لم يستطع الطب تمييزه، واشتمت غريزة الأم بداخلي شمس حياة شارفت على الانتهاء، جلستُ على الأرض بجوار فراشها أحاول التجلّد وعينيَّ ترفّان في قوه إيذانًا بخطب ما يكاد يحيط بي، وهي ممددة أمامي مرتجفة الأنفاس، تهذي بكلمات لم أتبيَّنها، هدأت قليلًا، طلبت كوبًا من الماء، نادت أبيها وهمست إليه: "يا آبه ماكُنْش تغضب علي.. كُتّ سيبني أموت من غير ما يموِّتني هوَّ".. صمتت فخرس الكون إلا من صرخة أطلقتها فاطمة تلقفها قلبي فأطلق أعتى العبرات، منعني عنها الموت، ذابت في ذلك الفضاء اللَّامنتهي ورحلت مرتدية ثوب عرس لا

تتمنى أم أن تدثر كبرى فتياتها به، لم يعترف سعيد أبدًا بأنه من قتلها، كما لم يعترف أبي من قبل، وكأنّ واجب الرجال عندنا هو قتل النساء، وهي جريمة غير قابلة للاعتراف، ولا تعاقب عليها قوانين البشر؛ لذا انتظرت إلى أن تطبَّق شرائع السماء.. وكلما تذكَّرتُها فاضت النيران فألهبت حلقي ووجهي، كلما نظرت في المرآة رأيتها تبتسم، وعندما أزور مرقدها تنتابني الهواجس، فأبحث عن معجزة تفتح لي القبر علِّي أراها نائمة فـــأغطيها وأغلق خلفي الباب وأعود.. تغلبت عليَّ الهواجس، فأصبحتُ لا أفرِّق بين خير وشر، فارقني النوم.. فأصبحت كشبح تخلَّى عنه الحظ.. دارت الحياة من حولي، وجلست أنا ثابتة على حالي، لا يسعدني شيء ولايحزنني...

إلى أن أرسل أبي في طلبي.. كنت أشعر أنني أكرهه، تغلَّبت على غضبي وكراهيتي وذهبت إليه، كان جالسًا بالساحة الأمامية للبيت، وحوله جلس بعض إخواني، ابتسم عندما رآني وطالبني بالجلوس، أخذ يتأمل ملامحي فأشحتُ بوجهي عنه، فلم أطق النظر إليه بعد كل ما أصابني.. قال في هدوء: ارفعي وِشِّك وبُصِّيلي يا بسيمة.. لم تساعدني الشجاعة على تلبية أمره، فظللت منكسة الرأس.. فأكمل: يا بِتِّي ردِّي عليَّ، أنا بَزْهَق لما أشوفك كده.. قلت في خفر: أنا بخير يا آبه.. ماتزهقش عشاني.. ردَّ: لا يا بِتِّي.. لو مازهقتش عشانك هزهق على مين؟ اللي حصل ده قضا ربِّنا، لازم نحمدوه.. قولي الحمد لله يا بِتِّي.. قلت: الحمد لله.. نادى ابن أحد أشقائي

وأسرَّ إليه، فجاء الفتى بعد قليل حاملًا بندقية أبي، اهتز قلبي لرؤيتها فما زالت تحمل بداخلها عبق أحمد، جلس يتحســـسها بيد أكسبها طول العمر رجفة موجعة، نظر إلى الشجرة الهرمة، والتي تحمل بين أحشائها عددًا من الطيور البيضاء، طلب وسادة وضعها تحت صدره وتمدد على الأرض ثم أطلق رصاصة أصابت كبد الشجرة؛ فسقط الطائر والغصن.. على الرغم من كل تلك السنوات التي أطعمت فيها جلدَهُ الشمسُ سمرتها ما زال شامخًا أبيًّا، فارسًا، عجز أن يهدي إحدى بناته زوجًا مثله، سلّمني البندقية وطالبني بإصابة أحد الطيور، تَيَبَّسَتْ يدي عليها ولم أستطع؛ فقد رأيت أحمد واقفًا بيني وبين الشجرة مضرَّجًا بالدماء.. وضع الرجل الكبير عينيه في الأرض ونكّس رأسه، مددت إليه بندقيته فرفض استلامها وأهداني إياها عسى إن نظرت إليها أن أتذكره.. كدت أقولها علانية: لا أريد أن أذكرك يا أبتاه.. يكفيني ما تمنحني ذكرياتك من قهر، لكن هيبته منعتني فجلست مطرقة بلا حراك.. سألني أن أسانده حتى أوصله إلى غرفته، ساءني أن أحمله تقريبًا وأنا أسير بجواره، وهو القوي دومًا والشامخ رغم ظهره المحنيّ، في منتصف الطريق توقّف فجأة، نظر إلى صفحة السماء التي تتربع على عرشها شمسها المبهرة، سقط من بين ذراعيَّ، قبض على ذراعي قبضة مزلزلة وهمس: "سامحيني يا بِتّي".. فقلت بلا وعي "مسامحاك يا آبه".. منح السماء ابتسامته الأخيرة وأغمض عينيه وذهب.

نديـــــــــــم

عشت أجرجر خلفي ذنب ألمها، أحاول أن أتصالح مع ذاتي بالصلح معها فتخذلني برودة ملامحها، تعاهدنا وتصافينا ولكنني ما زلت أتألم لجرحها، كلما انفصلت عن الواقع، أثقلت ذاتي الذنوب وفشلت في منح قلبي سببًا ليستريح.. سألتنى العوده إلى قريتها لتستريح قليلًا من عناء وصالي فمنحتها حرية البقاء هناك كما تشاء، وجلست أبحث عما يشغلني لجأت إلى العمل فلن يصبِّرني عن ابتعادها سواه.. كنت أقضي طوال اليوم بالجمعة وأعود لأستريح قليلًا ثم احتضن "اللاب توب" لأنجز أعمالي، في إحدى الليالي خذلني الكمبيوتر الخاص بي و لم أجد صبرًا لأصلحه؛ فقررت استخدام "اللاب توب" الخاص بنهاد، والذي لم أتعامل معه منذ منحتها إياه.. ضغطت على زر التشغيل وذهبت لأحضر كوبًا من الشاى فائق الحرارة يساعدني على تخطِّي ذلك البرد المثير للمشاعر، ما إن جلست أمام الكمبيوتر حتَّى لفت انتباهي صورة لشاب يتربع على الواجهة، شاب أزرق العينين شديد الوسامة بالغ الأناقة فتصورت أنه أحد نجوم السينما العالمية.. كان الكمبيوتر محتويًا على عدد ضخم من صور نهاد والتي شعرت بالفضول لتصفُّحها لأسعد برؤيتها في مراحلها المختلفة والتي لم تطلعني عليها أبدًا.

خطفت بصري تلك الصور التي أخفتها عني، كانت دومًا جميلة، أنيقة، تتنافس بوجهها الملامح لتبدو أكثر فتنة وأعظم إغراءً.. ابتسمت عندما رأيت مجلدًا عَنْوَنَتْهُ باسم "حبيبي"، شعرت بأنه يحمل صورنا معًا، فتحت المجلد لأجد عددًا من الصور لذلك الشاب شديد الوسامة، كان جالسًا بجوارها، يطوِّقها أحيانًا ويقبِّل يدها بصورة أخرى، زلزلتني الغيرة.. فلم أتصوَّر يومًا أن لنهاد حبيبًا آخر.. فأنا حبها الأوحد.. مشطت الكمبيوتر كله حتى أجد شيئا آخر فعثرت فقط على الخيبة.. قضيت أيام غيابها أتقلب على جحيم من الشك والعار، أبحث عن شيء يهدِّئ رجولتي المتوجِّعة.

عادت إليَّ فخذلتني أحاسيسي ولاقيتها بطوفان حب سحقني قبل أن يغرقها، كنت أبحث في وجهها عن دليل على خيانتها لي، ولكن تأبى الأدلة الظهور في وجودي، كنت أتجلَّد حتى لا أمنحها سببًا للقلق وأعطي قلبي هدفًا ليستمرَّ في النبض.. "كلُّهنَّ خائنات".. ورغم ذلك لم تخنِ امرأة سواها، كنَّ جميعهن يدَّخرن الإخلاص لي، وأتت هي لتبدده.. لِمَ يا نهاد؟! لِمَ؟!

قررتُ السفر فجأة، ذهبت إلى إحدى شقيقاتي التي احتضنت كل مخاوفي وطمأنتني، لم أجرؤ على أخبارها بخيبتي، ظللت ساهمًا شاردًا إلى أن قررت مواجهة كل شكوكي، لم

أعد أشعر بأنه بيتي، تلك الجدران الباردة تشمت ألوانها بضعفي، حتى هي صارت أخرى.. أخرى لم ألمسها يومًا، كلما هممت بالمواجهة ابتسمَتْ فيضيع جهد الليالي التي شحنتُ فيها شجاعتي سدًى.

لم تعد الحياة تبهجني، كل ما بها يذكّرني بأنني زوج عشقت زوجته آخر، كيف تفعل ذلك وأنا أول من علمتها كيف تلمس يد بشر؟ كيف تناست عمرًا قضيته فقط لأقنعها بأنها أنثى؟ كيف؟ كيف؟! غاب لون السكر الأبيض عندما احتضنه الشاي وكأنه يخرج لسانه لي هو الآخر، وكأن كل شيء ظننته طاهرًا بحياتي قد غلبه النَجَس، أمسكتُ بكوبها وهو يغلي كقلبي، قذفتُ الوجع عن وجهي وارتديت وجهًا باسمًا، ناولتها الكوب وهي تعمل على اللاب توب مرتدية ثياب النوم الحريرية نظرت إليّ من خلال نظارتها الطبية شديدة الأناقة، ثم عاودت النظر إلى الكمبيوتر وقالت بعفوية: شكرًا جواد كنت أحتاجه.. تجمدت مكاني، لم أستطع منع عيني من التطلُّع إليها في غضب وقلت: ملاحظة مهمة.. لست جوادًا.. ولم أتمنَّ يومًا أن تناديني زوجتي باسم رجل آخر.. قالت في بساطة: أعتذر عزيزي.. قلت: أي اعتذار يفي بما يشعر به زوج مخدوع؟ ثبّتت عيناها على عينيَّ فكدت أتراجع فقالت: ومن هو ذلك الزوج المسكين؟ أشرت إلى صدري وصحتُ: إنه

أنا.. من ظننت أنني الأول والأخير.. من تصوَّرت أن ذلك القلب الذي وضعه القدر بداخلك لا ينبض إلا لي.. لم فعلت ذلك؟ لم؟

تخلّت عن نظارتها الطبية وقالت في هدوء: ماذا فعلتُ لأثير كل تلك الزوابع؟ صرختُ: ناديتني بجواد.. قالت: كان خطأً.. وعندما سميته "حبيبي" كان خطأ آخر،وعندما كنت بين ذراعيَّ وناديتني به كان الخطأ الثالث؛كم خطأ يجب أن يعاقب بعده الرجل الحليم؟ردَّت:حبيبي.. لا...قاطعتها صارخًا: لست حبيبًا لك.. لم أعد.. لقد أغرقتْكِ خيالات الآخر ولا مجال لإصلاح الجرم.. قالت: ندم.. لم يكن الحب يومًا جرمًا يعاقَبُ البشر من أجله.. قلت: أتعرفين؟ قالت: لم أرتكب ما يشين، إن اعتقدتَ أن الحب خطيئة فحبي لك هو أول الخطايا.

تتلاعب بي وكأنني قطعة شطرنج.. ليتها تعترف بحبه.. ليتها لا تتحدث عني أنا..وصحت بها: والآخر؟ صاحت: ليس هناك آخر.. لَم تظن أنني أخون؟ أمسكت باللاب توب وأشرت إلى صورته الرائعة وقلت: من هو؟ اتسعت عيناها ونظرت إلي وكأنني أسالها عن شبح رأيته ولم ترد فصرخت بها: من هو؟.. أخبريني من هو ليطوقك ويمنح جبينك تلك القبلة؟! من هو لتمنحيه لقب "حبيبي" وقد كنت أظن أنني الوحيد الذي أملكه؟! لم يا هاد؟.. لم؟

احتضَنَتْ اللاب توب؛ فشعرت بالسعير يجري بين ضلوعي، فأخذته من بين ذراعيها، ورميت به على الأرض، دُسْتُهُ بقدمي وركلته حتى تحطم تمامًا، لم أشعر بنفسي، كنت هادرًا مائجًا وكأنني أختبر للمرة الأولى كيف يكون الغضب.. صَرَخَتْ بي: ماذا تفعل؟ قلتُ وأنا لا أعي: أحاول أن أجرح تلك المشاعر التي ذبحت كرامتي! صاحت:ها أنت قد فعلت فاهدأ.. صرختُ: لم فعلتِ ذلك؟ قالت: لم أفعل.. لم أخن ثقتك يومًا.. لم أفعل.. قلت: إذن من هو؟ صمتت دقائق ثم قالت: هو جواد.. تجرَّدتُ من كوني بشرًا ثم قلت: نهاد.. لم يعد لي مكان بحياتك.. لن تحملنا أرض واحدة..ولن تظلنا سماء.. شردَتْ قليلًا ثم قالت: هل تقصيني وقد حملتُ جزءًا منك؟.. أنا حامل.؟ قلت وقد أعماني الغضب: ليس جزءًا مني ولا ينتمي إليَّ إنه لجواد.. صرخت بي: هل جننت؟.. قلتُ: لا يا سيدتي، بل استعدت عقلي للمرة الأولى منذ سنوات.. أنتِ طالق.. طالق.. طالق...

لم أستطع النظر إلى وجهها؛ فقد تحول العالم من حولي إلى ضباب، ظللت واقفًا أستند إلى عصا غضبي إلى أن شعرت بما فعلتُ لجأتُ إلى كرسيّي المفضَّل أمام المدفأة التي كانت تشعُّ صقيعًا غائمًا لم أرَ له من قبل مثيلًا، جلستُ أُحصي الدقائق التي تمر، أقارن بين عقرب الثواني وقلبي، كم هو قاسٍ ذلك العقل

الذي لا يفكر سوى بنفسه، كيف يفعل هذا بي وبها، كم تمنيتُ أن تخبرني من هو، وكيف تلتقي به وهي التي لا تخرج من البيت إلا بمعجزة، كيف تتلقّى كل اتهاماتي بذلك الهدوء المشين وكأنها لا تهتم إن كنت أُصدِّق اتهاماتي أم لا..

دقّت خطواتها على الأرض خلفي فغار قلبي تحت قدميها، اقتربَتْ، كدتُ احتضنها ولكنني خشيت، وضعت أمامي مفاتيح البيت والسيارة وبطاقتها البنكية، كادت ترحل لولا أنني خشيت عليها الخروج في ذلك الجو الماطر؛ فقلت بصوت أنهكه الصراخ: نهاد.. لا ترحلي الآن فالجو مخيف.. ابتسمت قائلة: الخوف يسكنني حتى بالصحو.. لا تخشَ عليَّ.. قلتُ: أين ستذهبين الآن؟ بين القاهرة وبيتك مسافة خمس ساعات.. قالت: سألجأ لجواد.. أغلقَتْ الباب خلفها وكأنها تفتح بوجهي طاقة من جهنّم، وقفتُ خلف زجاج النافذة أراقبها تتأمل المطر عندما يصفح وجه النيل في تلك الظلمة، راحت فعلمت أن حياتي الآن قد انتهت، دخلتُ إلى غرفتها أتشبَّث بثوب نومها الحريري وأبكي.

بسيمة

كلما حاولت الابتعاد عن بسيمة اقتربت هي مني إلى أن قررتُ قتلها، سئمت حياتها الكئيبة والتي تقضيها كلها بين حزن وحزن لا يفرق بينهما سوى ألم، عندما تتلبَّسني بسيمة تُسيطر على كل قدراتي فتصبح تصرفاتي بنكهة أسلوبها، وتحوِّل كلماتي إلى أبجديتها، قررتُ أن أسيطر عليها أنا، فقد سئمت الاحتلال، سأحرر نفسي منها ثم أرغمها على التمرد، كم من مواقف وقفت بها صامتة وقد كان يموج بقلبي الكلام، تحمَّلت أفعال سعيد وأنا لا أتصور رؤيته حتَّى.

منذ ماتت ابنتها وأنا أشحن عزيمتها كي تنتقم وتستعيد قوتها التي دفنتها تحت رماد الرغبة في العيش، دخل سعيد إلى غرفتي فجأة، وسألني أن أترك ما بيدي وأصغي إليه، كان فَرِحًا على غير عادته، وأخبرني بأن هناك من يود خطبة فاطمة، انتقلت السعادة إلى صدري وسألته عمن يكون؛ فأخبرني بأنه الابن الوحيد لعمدة قريتنا، كان شابًّا وسيمًا ثريًّا، ولكن والده اشترط أن تترك فاطمة دراستها وتنتظر العريس حتى ينهي تعليمه الجامعي، كان شرطًا صعبًا أن تترك فتاة مُجدَّة تعليمها من أجل الزواج، ولكن الثراء يعوض كل شيء.

ذهبت إلى فاطمة متهللة، أخبرتها بشأن العريس وشروطه فرفضت أن تترك دراستها من أجل رجل، أصبحت أنا في

موقف يطالبني بأن أُقنع فاطمة بالقبول، وأقنع والدها بأن يجعلها تكمل دراستها... رفضت فاطمة، ظل طوال الليل يعمل على إقناعها بترك الدراسة، وفي الصباح ارتدت ملابسها وحملت كتبها متَّجهة إلى المدرسة، وبداخلي أتمنّى أن تفعل ما تريد، ولكن ليس لديَّ القدرة على الوقوف بوجهه، بكت، توسلت، وقبَّلت حذاءه لكنه لم يَلِنْ، لم يتصور أن تقف إحدى بناته يومًا تطالبه بحقّها في التعليم الذي كان رفاهية ليست لأمثالنا، طالبها بخلع ثيابها وارتداء ثياب البيت فرفضت، طار صوابه، وأمسك بشعرها الطويل وأخذ يضربها إلى أن نزفت أنفها ولم يكتفِ، ضغط على رقبتها بحذائه محاولًا قتلها، فأمسكتُ به محاولة تخليصها منه، فتركها وانهال عليَّ ضربًا، فشعرت كالعادة أنني خلقت فقط لأُهان، صرختُ به، وكانت المرة الأولى التي يرتفع فيها صوتي، أخبرته أنه لا يستحق امرأة مثلي وأنني كنت أتحمَّل كل ذلك الويل فقط من أجل أبي، وقد مات أبي، لعنت أبي، ولعنت يومًا رضخت فيه إلى سطوته، جريت إلى بندقيته التي أهداها لي يوم وفاته، ولا أعلم من أين واتتني القوة فحطمتها إلى قطع صغيرة، وكأنني أحطم ظلمًا أحاط بي عمرًا كاملًا ورفض أن يفارقني.. للمرة الأولى أتعاطف مع "فاطمة" - أمي، فمنذ عرفتها تعلمت كيف يُقتل التعاطف ويموت الرفق، شعرت أن بسيمة تمنحني تلك الجولة

وكأنها محاولة للصلح بيني وبين أمي، وهي التي لم تعرضه يومًا، كنت أراها نائمة بفراشها تبكي فتختلط المشاعر بداخلي، فلا أدري إن كنتُ نهاد ابنتها التي طالما نكّلت بها، أو أمها التي ترى ابنتها تعاني نفس معاناتها.

منذ حدث ما حدث لم يَزُر النوم عيني إلى أن يئست، جلست أبكي بجوار فاطمة إلى أن خطفني النوم، رأيت نقطة نور بعيدة يخرج منها أبي مرتديًا ثوبه الأبيض، جلست أرتجف وأنا أنظر إلى وجهه الغاضب، لم يحادثني، ولكنه مد يده إليّ وكأنه يريد شيئًا ما، سألته: "عايز حاجة يا آبه؟".. فقال هاتي اللي إنتي خَدْتيه!.. قلت: أنا ماخدتّشْ حاجة يا آبه.. مخدتش حاجة خالص.. صاح بي: ردّي اللي خدتيه!

أخذت أتذكّر ما أخذته فلم أتذكّر، فصرخ فيّ: رجّعي اللي خَدْتيه منّي ثم ضربني بعصاه؛ فانتفضت من نومي وقد اشتعلت النيران في كتفي وذراعي، كشفت عن ذراعي فوجدت أثر العصا على كتفي.. جلست أمام أشلاء البندقية - التي جمعتها - أفكر فيما يريده أبي، كلما أغمضت عيني طاردتني عصاه، إلى أن يئست من النوم الهادئ، لم أجد مخرجًا سوى استشارة أحد المشايخ، والذي طالبني بأن أقص عليه حكايتي مع أبي، والذي كنت أختم كل مشاجرة مع سعيد بقولي: "منّك لله يا آبه".. طالبني الشيخ بالاستغفار لأبي ومسامحته؛ فوعدته بالمحاولة.

استسلمت فاطمة، ولكنّها لم تنسَ كيف هُزِمَتْ في معركتها مع والدها، وبعد عدة أشهر أرسل العريس لسعيد يخبره أنه ما عاد راغبًا فيها فأصبحنا أضحوكة القرية، وكُسِرَت بسعيد شوكة الفخر الذي أكسبه له نسب العمدة.. انهارت فاطمة ونهشتها الحمّى، وشعرت بأنني على وشك فقدان ابنة أخرى، أمسكت قلبي بيدي خشية أن يحكمه موت آخر اعتاد زيارتي وسلمت أمري لله.. عاد حقدي على أبي أكثر مما كان، وعجزت عن التسامح، أحبه ولكن لساني ينعقد عن طلب الرحمة له رغم رغبتي في مسامحته..

في إحدى الليالي جاءني أحد أبنائي ليخبرني بأن العمدة جالس بـــ"فراندتنا" يصاحبه عدد من كبار رجال القرية، وأنه أتى ليعيد فاطمة إلى ابنه.. دق سعيد باب غرفتي وطالبني بأن أنفض عن رأسي غبار النوم ليخبرني بحديثه مع العمدة ورجاله، كان حائرًا لا يدري مايفعل رغم أنه أخبرهم أنه لن يهب ابنته لهم بعد ما فعلوه بها.

كلما صدَّ سعيد زاد العمدة وابنه في الإصرار على إتمام ذلك الزواج، وتحول بيتنا إلى مسرح لاستعراض مزايا العمدة وابنه الذي تحطّمت أعصابه بعد هجره لفاطمة.. بعد عدة أشهر حسم سعيد أمره أخيرًا وقرر قبول الوساطات، وافق هو فرفضت فاطمة العودة لمن تسبب في تحطيم حياتها، ولكنها

رضخت كما عودتما.. احتل والدي أحلامي ثانية، كل ليلة يأتي ليركض خلفي.. تارة يمسكني وتارة أخرى أتمكن من الهرب، إلى أن قررت أخيرًا أن أتناسى ما تسبب لي فيه حتى أمنح نفسي راحة فشل هو في تحقيقها لي.

ســــــــــــامي

وقع على الخبر كالموت على مُذنب لم يقرر بعد التوبة، أخبرني أبي أن نديم طلّق هاد، كانت صدمة لم تصدِّقها حواسِّي، كيف يمكن للحب أن ينتهي فجأة بكلمة يصدرها رجل في لحظة متناسيًا ذكريات وود دام سنوات، "طالق".. هذه الكلمة التي تضع حدًّا لحياة امرأة وتصمُها دومًا بوصمة الفشل، ولكن هل تمنع الحب وتحجب الذكريات كلمة كهذه؟ جلست طوال الليل أفكر كيف فعلها نديم ولَمَ؟ وهو الذي يعشقها حد الجنون وإلى الموت.. نقلها أبي إلى المستشفى عندما غابت عن الوعي، وجلس أمام غرفة الرعاية.. يبكي أحيانًا ويقرأ القرآن أحيانًا، لم يكن يدري أن ابنته تعيش معظم أوقات حياتها خارج حدود الوعي.

دخلت إليها.. بدت ميتة، تمنَّيت أن أذهب لنديم لأخبره أن حبيبته ترقد بالمستشفى ليرحمها، ولكن كرامتي أبت أن أضع شقيقتي في ذلك الموقف، كنت أتمنى فقط أن أراه، أن أعلم ما حدث، وكيف يتخلى عنها بهذا الموقف.

أهداني طبيبها سببًا محترمًا لزيارته؛ فقد قرر أن طفل هاد يُحدِق به خطر الأدوية التي يحقنها بها الأطباء، وطالبنا بالموافقة على إجراء عملية يُسقِطون بها الطفل.. ذهبت إليه في الجامعة،

كان هادئًا تشعُّ عيناه ببريق غريب، أخبرته بقرار الطبيب، كنت أتحدث وهو يتفحَّص ملامحي وكأنه يبحث عن نهاد، لم يمنحني كلمة واحدة، فقد ظل صامتًا على غير عادته.. أنهيت حديثي وهو محدق بي، إلى أن قال: دكتور سامي.. لست مهتمًّا كثيرًا بهذا الشأن.. لقد اعترفت لي نهاد بأن ذلك الجنين ليس طفلي.

همست: ماذا؟!

قال: شقيقتك مدلَّهة في حب آخر.

قاطعته قائلًا: أي آخر؟

قال: اسمه جواد.. لا أعرف اسمه الأخير.. لكنه شابٌّ فائق الوسامة أزرق العينين.

استعدتُ أعصابي ثانية وقلت: جواد؟! هل أخبرتك أن هذا الجنين طفل جواد؟

قال وقد لمعت الدموع بعينيه: نعم.. فَعَلَتْ.

قلت: نديم هل تدري أن شقيقتي فقدت اتزانها العصبي، وأنَّها تعالَج نفسيًّا، وأنها غير مدركة تمامًا لما تفعل؟

قال: ربَّما تعاني خطبًا ما.. ولكنها في كل الأحوال تعشق جواد.

قلت: اثبت يا عزيزي.. فكم تمنيت أن أكون مخطئًا.

قلت: تعالَ معي.

أخذته حيث مقابر قريتنا، أمسكت بيده وطالبته بالتماسك، ألقيت السلام على الموتى وأخبرهم أن كل الأحياء في طريقهم إليهم طال أم قصر.. وقفنا معًا أمام القبر الذي يضم بداخله صديق عمري، طالبته بأن يقرأ الفاتحه ثم يقرأ ماكتب على شاهد القبر.. أسندت رأسي إلى القبر محاولًا صد سيل من الدموع يغرقني دومًا عندما أتذكر أن ذلك الفارس قد استسلم للموت وهو الجسور الذي لا يهاب.

ركع نديم أمام القبر وقال وقد علت الصدمة ملامحه: ولكنها أخبرتني أنها ستذهب إليه! ماذا يعني ذلك؟.. و لِمَ تحتل صورته واجهة الكمبيوتر الخاص بها؟ ومن هو لتحتفظ له بذلك الحب بعد موته بأكثر من سبع سنوات؟ هل لديك إجابة لأسئلتي؟

حكيت له قصة جواد، كل شيء أخفته نهاد حتَّى لايعيِّرها ذلك الزوج بأنها عرفت من قبل شخصًا غيره، أخبرته أن الطبيب النفسي الذي يهتم بحالتها شخَّص سبب كل ما تمر به بفقدان الأمان، وكرامتها تأبى طلب المساعدة، أخبرته أيضًا أنها تعيش حياة أخرى أثناء غيابها عن الوعي لذا فهي مشوَّشة، تعيش بين الماضي والحاضر، متأرجحة بين نهاد وأخرى.

قال: ألهذا كنت أحلم بتلك الطفلة الذبيحة تستنجد بي؟

قلت: نعم.. إن ما سأخبرك به لا يعلم به سواي؛ لذا لا تخبر أحدًا به.

قال وقد برزت على ملامحه صفة الاهتمام: ثق أنني لن أفعل.

قلت: تزوَّج والدي امرأة أخرى، فاشتعلت النيران بقلب أمي، مَرِضَت إلى أن أصبحت لا تفرق بين خير وشر، كانت نهاد طفلة حينها متعلقة جدًّا بأبي، كلما عاد أبي إلى البيت دفعه غضبها إلى هجرانه، وأتى أبي يومًا ليتفقدنا، وكانت أمي لا تتحمل أن تراه، طلبت منه مغادرة البيت فغادر في هدوء، فبكت نهاد وهمَّت بالذهاب خلفه، لولا أن أمي تناولت السكين من طبق الفاكهة وسلَّطَتْهُ على عنقها، ولم تشعر أمي بنفسها سوى بعد أن رأت الدماء تنهمر من عنق نهاد، كان جرحًا سطحيًّا بالعنق، ولكنه ترك بداخلي طعنه غائرة، ربما أخفت عنك نهاد كل ذلك، لكنها تستحق المساعدة، ليس لأنها شقيقتي ولكن لأنها زوجتك.

شعرت أن كل كلمة من كلماتي تنفذ إلى قلبه مباشرة، فلم يتصوَّر يومًا أن تلك المرأة التي تحتضنه ليلًا لينام بين ذراعيها تحمل بصدرها كل هذا الكم من الأسرار، وتنوء تحت ثقل

المعاناة وحيدة لا يشاركها بحملها أحد.. كان ضائعًا يبحث عن الكلمات فتأبى أن يلفظها، قال أخيرًا: لم أدرك أي جرم اقترفت سوى الآن.. لكنني كنت محطمًا.. إن كانت تحبني فعلًا وجواد بجرد ماضٍ لَم تحتفظ بصوره إلى الآن، لم تناديني دومًا بجواد؟

قلت: نهاد تلجأ إلى الأموات، تعيش حياة جدتها هربًا من حياة مؤلمة فقدت التواصل معها.. إنها تعشقك، وما يحدث رغمًا عن إرادتها.

أسند جبينه إلى يده فَبَرَقَ خاتم الزواج بيده وقال: لقد قضيت أيام طويلة أُقنِع قلبي بأن ينبض دون نهاد، أحاول أن أكرهها، ولكني اكتشفت أنني أعجز عن الكره.. كيف أستعيدها وهي التي لم تبكِ لفراقي، و لم تبذل أي جهد في إنقاذ حياتنا وكأنها تتوق للخلاص مني.

قلت: إنها تتوق لخلاص من الحياة كلها..

قال: هل أستطيع رؤيتها؟

لفظتني بسيمة كما تفعل دومًا، أعادتني إلى عالم المرّ الذي أتجرَّعه دومًا دون أن أستخدم حقّي الشرعي في التذمر، فاجئني وجود سامي الذي أصبح يفضّلني على مشاغله الكثيرة، رغم أن وجوده لم يغفر له تجاهلًا دام عمرًا كاملًا، كنت غاضبة لأمر ما لا أدري ما هو، أعماني الغضب فطلبت من الجميع تركي بمفردي.. قضيت عدة أيام جالسة في شرفة سامي أتأمل النيل الذي كان يمدني بطاقة مضاعفة من غضب فتك بحلمي.

لا أدرى لَمَ أتى بعد أن محاني من حياته، جلس بجواري، سلّم فلم أمنحه ردًّا مكافئًا فلا يستحق السلم، أخبرني أنه اشتاق إليّ فلم أُعِرْهُ انتباهًا، سألني عن مصير الطفل فصرخت به: أي طفل ذلكَ الذي أتيت لتقرر إن تعطفت عليه بالحياة أو منحته الموت؟

رد في هدوء: طفلي..

قاطعتُهُ: ليس طفلك.. أنه لجواد..

قاطعني: ولكن جواد لم يهبك جنينًا؛ فقد توقّف منذ زمن طويل عن منح الأجنَّة.

قلت: سأحتفظ بالطفل.. ربما تزوجتُكَ أنت، لكنك لم تكن مخلصًا كجواد، لذا عشت بين ذراعيك ولكنني كنت دومًا

أنتمي إليه، لا تتصور أنني تسامحت بأخطائك يومًا، لم أغضب لأن جواد كان يُسَكِّن غضبي دومًا ويطالبني بالصبر.

قال: نهاد.. أعلم أنني تسبَّبت في معاناتك، وأنا الآن أمد يدي إليك كي أصلح ما أتلفتُ، أعلم أن علاجك في القرب مني، وأشعر أنني خلقت فقط لإسعادك.

قلت: لا يهب السعادة من يفقدها سيدي.. ولقد توقفتُ عن الثقة بك.

قال: منذ متى؟

قلت: منذ حملتَ بذرة الشك ورويتها إلى أن أضحت عنقاء تلتهم كل ذكرياتي معك.

قال: هلّا غفرتِ؟

قلت: غفرتُ من قبل و لم استمرئ طعم الغفران.. لَمَ أتيتَ؟ لتطالبني بالتخلص من طفلي؟

قال: أخشى عليه.

قلت: وأعيش بلا ذكرى؟

قال: سأهبك طفلًا آخر.. أعدك.

قلت: أنت بالنسبة إليَّ ميت، وكما قلتَ.. الأموات لا يمنحون الأجنة.

قال: نهاد.. ربما ارتكبت خطأ ما، ولكنني أريد التكفير عنه.

قلت: لم يعد هناك مجال للتسامح.. وسأحتفظ بطفلي.

تركت المكان وذهبت إلى غرفتي، تركت العالم كله خلفي وجلست وحيدة بعالم آخر لا تُتَداول به عملة الظلم، يطالبني بالغفران وهو الذي رماني بالعراء في منتصف الليل أقاسي ظلمة القهر وحدى، تتأرجح بي أمواج الحزن وتضمني بعبق الخيانة، وأنا التي لم يمسسني سواه، كم غفرتُ، ولكن الآن لا مجال لغفران، فالتسامح فقط للضعفاء.

فتح أبي باب عالمي وصفقه خلفه بعنف وقد شعَّ الغضب من كل قسماته، أثار أعصابي ذلك الفعل الذكوري الذي لم أعترف يومًا بأن أبي يتَّصف به، لم يأتِ لمطالبتي بالخروجِ لزوجي وإرضائه، وإنما جاء ليعاتبني على معاملتي له، صاح فيّ: كيف تعاملين زوجك بتلك الطريقة؟

قلت: أي طريقة يا أبتِ؟

قال بغضب: لقد جاء الرجل ليعتذر ويعيدك إليه، لَمَ لَمْ تمنحيه الفرصة؟

قلت: ومن منكم منحني فرصة وحيدة لأن أكون بشرًا، أنت يا من كنت حبيبي الأول؟!.. هل منحتني فرصة لأدرك

أنك أب ككل الآباء؟ هل قبّلتني يومًا؟ هل عدت يومًا من أجلي؟ هل سألتني يومًا عم أحتاج؟ هل تدري كم ألف مرة مِتُّ من أجل ما فعلتَ بأمي؟ هل تساءلتَ يومًا كم تعذّبني أمي؟

قال وقد انخفضت نبرة صوته: لِمَ؟

قلت: من أجل الشيء الذي منحتَهُ لي دون أن تقصد.. ملامحي.. إنني أشبهك يا أبي، كم تمنيت ألا أنتمي لك، فأنت الأكثر أنانية وإيذاءً بين كل من عرفت.. هل جئت لتطالبني بأن أعامل زوجي معاملة لائقة؟ هل فعلت ذلك مع أمي؟ هل فعلت ذلك معي؟ إنني مثلك أيها الوسيم.. لي وجه ملاك وقلب أفعى.. هل تسامَحَتْ من قبل أفعى؟

كان مذهولًا.. لا يصدق أنني من تقف أمامه لأصف له طابور سيئاته، وأنا التي طالما تغزَّلت به، لم ينطق، فصرخت به: هل طرأ على خاطرك يومًا كم جلست خلف باب البيت أعاني البرد في انتظارك علّك ترحمني من جحيم أمي؟ هل قضيت حياتك تبكي من أجل حبيب حرمت منه؟ هل تدرك أنني حين فقدت جواد فقدت معه هيبة أبي؟ لم تكن يومًا أمامي رجلًا.. كنت دائمًا شيطانًا.. تمامًا مثلها.

قاطعني سامي قائلًا: نهاد.. إهدئي.. أرجوكِ..

فاجئني وجوده فصرخت به: و.. أنت.. تطالبني بالهدوء.. هل كنت ستهدأ إن داستك الأقدام وتحوَّلت في نظر الجميع إلى لا شيء؟ إنك مثله تمامًا.. باهت، ضعيف، وأناني.. تفرض إرادتك فقط عندما يتعلق الأمر بك، أما أنا فلم تهتم بي قط.. أتعلم؟!.. إنك تصيبني بالغثيان.. فمثلكما لا يستحق أن يكون بحياتي.

صرخ أبي: لم أتصور يومًا أنها ستنقل إليكِ عدوى الحقد.. إنك...

قاطعه سامي قائلًا:أبي..أرجوك لا تغضب..هاد.. شقيقتي.. أعترف أنني تركتك تقاسين، وأدرك أنني أخطأت حينما سمحت لها بأن تفعل ما فعلت، لكنها كانت أمي و لم يكن لديَّ قدرة على جعلها تعاني أكثر.. هاد.. أنا أحبك، تركتُ عملي وكل شيء وأتيت لأساندك.. ألا يشفع لي ذلك؟

قلت في غضب: هل يشفع للقاتل أن يعيد الدماء إلى شرايين من قتل؟

قال: حبيبتي.. أعتذر إن أسات إليك.. أرجوك اقبلي اعتذاري.

قلت: لا تعتذر.. فاليوم كالقيامة لم يعد يجدي اعتذار.

رد أبي: لم هذه القسوة؟

قلت: إنها الجينات الوراثية ياعزيزي لا تتبرَّأ من شيء زرعته.. حتى هي... وأشرتُ إلى صورة أمي المستندة للجدار.. لن أسامحها؛ فقد منحتني سببًا قويًّا للغضب.

قال سامي: لقد كانت مريضة، وليس على المريض حرج.

أمسكتُ بمطفأة السجائر وقذفت بها صورتها وابتسمت قائلة: أنا أيضًا مريضة.

صرخت فيّ لتخبرني أنني فقدتُ بعينيها الهيبة، وهي التي طالما تغنّت بحبها لي، لم أدرِ كيف احتمل قلبها ذلك الكره للشخص الأول الذي منحها حق الحياة، لستُ غاضبًا، ولكنني أشعر بالأسف إذ كنت الشخص الذي طالما منحته الحب والحنان إلى أن يئست منه فمنحته باقة من الأسى زرعتها لسنوات، وأهدتها له يوم انتظر منها كلمة "أحبك يا أبي".

كانت قوية إذ تحملت مر حياة تخلّيتُ عنها عندما استشعرتُ مرارتها، كنت أباها، لكنها أيضًا كانت أمي، عندما تشتمُّ رائحة المناوشات بيني وبين والدتها، تأتي دومًا لتحتضنني وتربت على ذراعي وتشاركني فراشي الخالي، أعتذر إليها أحيانًا فتبتسم قائلة: من ينظر إلى هذا الوجه الباسم دومًا لا يلتفت لاعتذارات.. كم شعرتُ أنني ألّهتُ طفلة فخلعت عليها من صفات الآلهة ما يعجز عن حمله البشر، لتكشف لي اليوم عن وجهها الحقيقي، وجه الطفلة الغائبة عن الحياة وكأنّ كل تلك السنوات توقّفت لديها فجأة عند عمر الخامسة.

لم أكن ظالمًا يومًا، ولكنه طموحي الذي دفعني لهجر والدي "العمدة" للبحث عن آفاق جديدة، عشقت الدراسة؛ فغسلت عن قدميَّ طمي الأرض الذي طالما أطعمني، تنكّرت للون

الأخضر، فضلتُ عليه هجير القاهرة التي يذكّرني سحرها "بالنداهة".. عشقتُ تلك اللعوب فأنستني القرية العذراء التي يحكمها أبي بجبروته، وعلمني أن من يحكم لا بد أن يتناسى الموت؛ فالحكم والموت ضدان، فوجدتني أكره الحكم وأعشق الموت، أرسل أبي في طلبي يومًا فلبيت نداءه، أخبرني أنني سأتزوج فتاة تهتز القرية لفتنتها، فشعرت أن حريتي التي طالما طلبتها اليوم ستنتهي، لم أعارضه، فهو ككل جائر يكره المعارضة، تخفّيتُ لأراها عند ذهابها إلى المدرسة فعلمت حين رأيتها أنها أم أطفالي.. كانت فرعاء تخجل من طولها الأشجار على جانبيّ الطريق فتضنُّ عليها بالظل وتتركها للشمس تصبغ وجنتيها الداميتان، فيشعر من يراها بأن حياته ستنتهي عند شفتيها، جبينها يحجبه شعر شلالي شديد السواد، ينهمر على كتفيها فيمنح قميصها الأبيض لون اليأس، عدت إلى أبي صاغرًا، وقد تخلّت عن سحري القاهرة وجذبتني إليها نداهة القرى، صمم أبي على حرمانها من دراستها فحرمني فرصتي الوحيدة لرؤيتها، أصبحت لي، ولكنني عاجز عن سماع صوتها أو حتى المرور أمام بيتها، كل ما أعرف عنها هو لوحة رسمتها رغباتي وأبدعت في سرد تفاصيلها.

عدت إلى قاهرتي نصف مشتاق بعد أن فتنتني "فاطمة"، فتحولت شوارعها الفسيحة إلى سجون لمشاعري التي اعتادت الانطلاق، ولكن سرعان ما نسيت كل ما تركته خلفي عندما التقيت بأخرى.. احترفْتُ الالتقاء بأخريات حتى مللت طيف فاطمة، لَم أربط حياتي بحياتها - وهي الريفية الغريرة - وأمامي سيل من فتيات القاهرة المثقفات الثريات؟ تغيرت أفكاري فتغير قلبي ونسيتها.

طالبني أبي بالعودة بعد أن أنهيت دراستي فعدت، صفعتُهُ بقراري وهو الذي لم يختبر يومًا نكهة الصفع، غضب، هدد، فلم ألتفت له، ما نفع كل تلك الأفدنة بصحبة قلب تعيس؟.. رضخ إليّ فأرسل إلى أبيها لينهي ما بدأ، لأعود أنا إلى معشوقتي التي لا أذكر أنها كانت يومًا عذراء، فهي منذ خلقت مثقلة بوهم الحرية.. عشت كما أريد وسط فراشات الحب، إلى أن شعرت أن قلبي قد امتلأ عن آخره، فقررت مع نفسي الفرصة لأغسل عن قلبي تلك القمامات التي استوطنته.. رأيتها صدفة تنزل من سيارة وقفت أمام بيتهم وبجوارها والدتها تساندها، وقد تحول بستان الزهر النابت على وجهها إلى صحراء، علمتُ أنها مرضت منذ أعلن لهم والدي انتهاء الخطبة فشعرت يومها كم كنت أنانيًّا..

ظللت عدة أيام بعدها بلا نوم.. تتراءى لي كلما أغمضت عيني، أخبرني أحد أصدقائي بأنه يفكر بخطبتها، فاستثار بداخلي رغبة لامتلاكها؛ فلن أدعها له، لقد كانت يومًا لي.. ولم أعتد أن أترك أشيائي ليستمتع بها غيري.. ذهبت إلى أبي وركعت تحت قدميه.. أخبرته أنني كنت دومًا مخطئًا، وأنني أحتاجه ليرمم لي ما حطمت، لبّى أبي ندائي؛ فقد كان حاكمًا جبارًا ولكنه كان أبًا مثاليًا، لم يهدأ إلى أن أعاد إليّ مليكتي ومنحني سببًا لأزهو.

تزوجنا فانتقلَتْ إلى بيتي وكأنما نُقلتْ إلى قطعة من الجنة، كانت تمثالًا قُدَّ من مشاعر، هادئه كغدير هامس ينبض دومًا بالود، بعد عامنا الأول أهدتني "سامي"، فشعرتُ للمرة الأولى بطعم الأبوة، بعدها اعتدت ذلك الشعور إلى أن رأيت نهاد للمرة الأولى مغمضة العينين، فاستعدت بحبِّها نزق المغامرة.. ركدت مشاعري فعدت إلى القاهرة أبتغي أحاسيس الصبا التي هجرتني، تناسيتُ أطفالي، ونسيتها بعد أن سرقَتْها الأمومة مني.

ضاقت عليَّ القاهرة فسافرت إلى لبنان لأجدد طاقتي، فالتقيت بـــ"ديما" قمر لبنان الذي علمني أن للعالم مدار واحد تتربع هي بمركزه، تزوَّجتها.. وكان الزواج منها اللبنة الأولى التي أسقطت جدار الود بيننا، فلم تتصور فاطمة أن ألجأ لأخرى.

تركت فراشي وذَهَبَتْ تفترش الأرض انتقامًا من رجولتي التي صفعَتْها فأدمت كرامتها، ارتدت الأسود حدادًا عليَّ وأنا ما زلت أتنفّس، حزنتُ لمعاملتها في البداية، ولكنني اعتدمّا، امتنعتُ عن اعتبارها زوجة، وأبت أنانيتي أن تمنحها الحرية فيهنأ بها سواي، لم أشعر أنني ظلمتها إلا عندما ماتت، وقفت أتأمل ثوبها الأبيض ووجهها الجميل، وتذكرت حينها فقط أنها ما زالت زوجتي.

كان أبنائي يطالبونني أحيانًا بالعدل بين زوجاتي، ولم أجد سببًا يشجعني على ذلك العدل، الآن أقف أمام ابنتي تعيسًا وهي تعاملني كما أستحق، فقد تعوَّدتُ دومًا ألا أُعاقب على أخطائي، اليوم فقط أدركت كم كنت قاسيًا تملأ الأنانية أنسجتي، كم كانت الدماء بداخلي لا تتغذّى سوى على صلف، اليوم تجردت من كل شيء ووقفت عاريًا تلفحني سياط الماضي، أحاول التستر خلف أبوّتي فتخذلني، كم تضاءلتُ أمامها وهي من خلعت عليَّ صفات العمالقة!.. حطّمَتْ صورة والدها وكأنها تنتقم مني قائلة: "سأفعل ذلك بك حين ترحل".. كم أخشى – من أجل ذلك – الرحيل.

غفـــــران

وقفت أتأمل صورة أمي المحطمة وسط صدمة الجميع، لم أكترث لهم وأخذت أتأمل الألوان التي أخذت تتلاشى بسرعة وتتحول إلى كتلة من الأبيض والأسود، أخذت أحدّق إلى تفاصيل الصورة والتي تحولت إلى صورة محطّمة للرجل الكبير، انتابتني رغبة غريبة في التعطف مع الصورة المصلوبة دومًا فأمسكت بها ورميت بها على الأرض، ثم ركعت عليها أقبِّلها وأبكي.

لملمت أجزاء الصورة، وضعتها على منضدة، انكفأت عليها محاولة لم شملها مرة ثانية.

لجأت إلى قِدر ماء لأملأه، وضعته على المقعد وجلست أنتظر غليانه، نقلته إلى الحمّام، تجردت من ثيابي، وقفت أتفقد حجم الخسائر والتلفيات التي لحقت بجسدي بعدما ضربني سعيد، لم يعد لدي قدرة على تحمُّل تلك الإهانات، لم يعد لدي أحد لألجأ إليه، حتى طيف أبي صار يطاردني حتى شعرت أنني أعيش خلف أسوار رضوانه.

مشردة أنا بلا حبيب، ويلاه! لمَ مات أحمد؟! كلما ذكر الحب تمنيته، وكلما سمعت اسمه استرخت أعصابي وكأنه من يسكّن كل جراحي، لملمت خسائري وضفّرت شعري

وغادرت الحمام وقد هدأت قليلًا، دق الباب فصفعتني طرقاته، ذهبتُ لأفتح، كانت ظريفة شقيقتي وقد أتت من قريتها البعيده لتزور قبر أبي، تذكرت للمرة الأولى بعد وفاته أنني لم أشتق يومًا لزيارته، نظرَتْ إلى وجهي الذى رسمت كف سعيد فوقه أبشع لوحات القهر، وطالبتني بالصبر الذي سئمني فتخلّى عني.

شعرتُ بشوق جارف لذلك الضريح الذي زرته يومًا في صغري و لم أجرؤ ثانية على زيارته، فقد كنت أشعر دومًا أن أمي ما زالت هناك تقبض على تلك الشمعة محاولة إشعالها، أخبرت ظريفة برغبتي فعرضت عليَّ الذهاب معي، كيف وأنا الاسيرة دومًا لا تفك أغلالي، روحًا حبيسة خلف لعنة قديمة أغلقت دونها أبواب الفردوس، ظللت طوال اليوم أتارجح بين رغبتي في الذهاب وبين خوفي من رفض سعيد، عادت شقيقتي من المقابر وقد تجددت ملامح البِشر فوق وجهها، لم أدرك قط ما السبب الذي يسعدها عند زيارة قبر أبيها، تمنيت لو تلبَّستْني الجرأة ساعة واحدة لأقف هناك أمامه وأخبره بما أعاني حتى يجد لي عذرًا مناسبًا فيعفو عني.

هناك حيث يرقد وقفتُ وقد أظلم العالم من حولي، طأطأت رأسي فقد تمثّلت أمامي كل المواقف التي جعلتني أسب حظًا جعله يومًا وليًا لي، غلبتني الدموع فأمطرت عيناي كما لم تفعلا من قبل، ركعت أمام شاهد قبره القديم ألثمه وأطالبه

بالتصرُّف كوالد حكيم أخطأت بحقه إحدى فتياته، ظللت موثوقة إلى قبره طوال اليوم إلى أن شعرت أنني تذلّلت اليوم بما يكفي.

عدت إلى البيت منهكة، وضعت رأسي على وسادتي التي طالما ملّت بكائي، أغرقني النوم فلم ينبهني سوى صوت سعيد وهو ينتشلني دومًا من الأحلام ليعيدني إلى كوابيس الواقع، فتحت عيني على ابتسامته التي قلّما رسمها على وجهه وقال: إصحي كده شوفي أنا جبت لك إيه؟

قلت وقد أعماني طول البكاء: خير.. اللهم اجعله خير.

مد يده ليمسك بيدي ووضع بمعصمي زوجًا من الأساور التي لم أتصوَّر يومًا أنها موجودة، شعرت ببعض السعادة، ولكنني خشيت إن أُفرَطتُ بها أن تطاردني خيبة الأمل، ولكنه سرعان ما فتح علبة الذهب مرة أخرى وأخرج منها "عقد زيتونة" من الذهب مكوَّن من أربعه طبقات تفتن من يراها.. نفضت عن رأسي أعشاش الدهشة التي امتلأت بها رأسي وسألته: إنت جبت ده كله منين؟

قال: بعت محصول البنجر وربنا كرمنا فيه.

قلت: مش أنت كنت قايل هتشتري أرض دار رضوان.. هتدفع تمنها منين دلوقتي؟

قال: مش شاري أراضي.. أنا عشت طول عمري أشتري وأضيَّق على نفسي وعليكم.. كفاية كده.. خلينا نعيشوا لنا يومين قبل ما نموتوا.

وبدون أن أعي قلت: بعد الشر عليك.. إن شاء الله أنا.

نظر إليَّ نظرة نفذت إلى أعماقي وقال: مش هيصيبنا إلا نصيبنا.. المهم تكوني مبسوطة من حِتِّين الدهب.

قلت: إلَّا مبسوطة..

قال: طيب.. إعملى حسابك بكره هتروحي معايا دسوق عشان هوديكي للدكتور.

قلت: أنا مش عيانة.. هروح للدكتور ليه؟

قال: عشان تِتْسَنِّي.. هعمل لك بطاقة.

قلت: يا همي.. بطاقة بعد السن ده؟ أنت بِتِتْأَلْتِنْ عليَّ يا راجل؟

قال: لا.. أنا هعمل لك بطاقة عشان أعمل لك جواز سفر.

ارتسمت الدهشة بداخلي وقلت فيما بيني وبين نفسي.. "جواز سفر.. الهبل ده ولا إيه؟"

أطَعْتُه؛ فقد تعلمت من نوبات التمرُّد الكثيرة أنه لا يلين، راقبته وهو ممسك بجوازات السفر سعيدًا، وكأنه ممسك بين

يديه قطعة من الجنة، ابتسم وقال: خدي يا حاجَّة بسيمة شيلي الجوازات دي لبكرة.

أمسكتُ بها وقلت: قال حاجَّة قال.. يسمع من فمك ربنا.

قال: حاجَّة ونص.. أمَّال انتي فاكرة أنا بعمل ده كله عشان آه؟

قفزتُ من مكاني قائلة: يعني إحنا هنروحوا نحجُّوا يا سعيد؟!

ابتسم قائلًا: إيوه.. افرحي بقى.

عدتُ وقد ارتدى كل شيء من حولي الأبيض، حتى أنا منحتني عدالة السماء أخيرًا ثوب عرس ضنَّ به العالم عليَّ ليلة عرسي، لوَّن أبنائي البيت، رسموا على جدرانه كعبة كبيرة يرتجف جسدي دومًا لتأملها، كانت حياة جديدة أتت متأخرة أكثر من ثلاثين عامًا، ولكن يكفي أنها أخيرًا قد أتت.. لم أعد أرى زوجي بتلك الصورة التي دأب الشيطان على منحها له، اكتشفتُ أخيرًا أن له ثلثا قسمات أحمد، لم يعد يؤذيني بعد أن منحَتْهُ رحلة الحج فرصة لمنح علاقتنا لون الود، لا أدري لم تغيَّر أخيرًا، لم كان يذهب كل يوم إلى فاطمة محمَّلًا بالطعام والفاكهة، وهو الذي لم يدخل بيتها منذ أهداها لزوجها للمرة الأولى.

ذات يوم عاد إلى البيت مبكرًا واضعًا يده على صدره في حذر، انقبض قلبي فسألته عما به؛ فابتسم ولم يجب، في المساء أخذه فايز ابننا الأكبر وذهبا إلى أحد الاطباء... بينما أُعِدُّ طعام العشاء سيطر على بصري مشهد لطيور بيضاء ترفرف بأجنحتها حولي ثم مشهد نساء كثيرات يملأن البيت، نفضتُ عن رأسي تلك التخيلات وأخذت أستعيذ.. إلى أن سمعت صوت فايز ينادي؛ فهرولت إليه لأجده راكعًا على سلم البيت وأمامه تمدد سعيد، صرخت به: يا حِزْني.. أبوك ما له يا فايز؟

رد: مش عارف يا أمه.. طالع السلم لقيته سند عليَّ ووقع على الأرض.

قلت في خوف: شيل أبوك معايا يا فايز ندخلوه جوَّه واجرى شوف لنا دكتور.

تمدَّد أمامي فاقدًا للوعي،ففقدَتْ حياتي طعم الحياة، أتى الطبيب، أمسك بيده، فتح عينيه، تفحَّص صدره،ثم رفع الغطاء على وجهه، تجمَّدتُ عندما صرخ فايز مناديًا أبيه يطالبه بعدم الرحيل.. تلاشى العالم أمامي،وشعرت بأنني أنهار بعد أن تحطم أساس حياتي، ظللت طوال أيام العزاء أحملق بسقف ذكرياتي التي تتلاشى جميعها، ومنحت حياتي لون الفراغ.

آويت إلى فراشي البارد وحيدة أستنجد بوسادتي، للمرة الأولى اكتشفت لم كان يضيق الفراش؛ فقد كان يحمل جسدي

وروحي وعماد حياتي، تطلّعتُ إلى صورته المعلّقة فدمعت عينيَّ.. لوعة الفقد تحرق ما تبقّى من جلدي وتمنح الصبر البطاقة الحمراء، لم يعد شيء يستحق الحياة من أجله، فقد اكتشفت بعد رحيل سعيد أن حياتي انتهت.

مرَّت أشهر قليلة وجاءني فايز يطالبني بحوار وصفه بأنه ديموقراطي، جلس أمامي خَجِلًا يبحث عن الكلمات فتتمنع عليه، إلى أن قال: بقول لِك إيه يا أمه.. أنا عايز أخطب.

سقطت عليَّ الكلمة فأفقدتني التوازن، لكنني استجمعت شتاتي وقلت: تخطب ليه؟ اللي في التربة ده كان كلب؟ تدفنوه النهارده وتخطبوا لابنه تاني يوم؟

قال: لا يا أمه.. لا سمح الله.. أبويا على عيني وراسي.. بس الحياة بتستمر.. ما بتُقَفْش عشان واحد مات.

قلت: عايز تخطب مين؟

قال: مش مهم مين.. المهم توافقي على مبدأ الخطوبة الأول.

قلت: طب هتوكّلها منين وأنت لسه ما خلّصْتِش الكلية.

قال: يا أمه مش عيب تقولي كلمة زي دي.. ده إحنا أصحاب أطيان.. وأنا مش هتجوز غير لما أخلص الكلية.

قلت: أنت حاطط عينك على حد؟

قال: إيوة يا أمه.

قلت: حد أعرفه؟

قال: إيوة.

قلت: مين؟

سكت قليلًا ثم قال: هنية بت عم استفتاح.

بدون وعي صرخت: يا نهار أبوك إسود!

قال: إيه يا أمه ما لها هنية.

قلت: دي أبوها أُجَري عندنا يا وَله.. وأمها بتشتغل في غيطان الناس! إنت اهبلت؟

قال بثقة: شوفي يا أمه.. الفروق الطبقية بتاعت زمان دي أنا ما بؤمنش بيها.. أنا مش هتجوز غير هنية.

صرخت: ما إن شاء الله عن اللي جايبينك ما اتجوِّزوا.. قسمًا عظمًا إن جبت سيرة الموَّال ده تاني لا أكون طالعة في الشارع حافية كاشفة راسي ومصوَّتة!

صاح: يا أمه مش كده.. أنا بحبها وهي بتحبني.

صرخت: حَبَّك بُرْص أنت وهي.. إيَّاك تجيب السيرة دي تاني.. جدعان قتيلة الحاكم.

استحال العالم من حولي إلى جحيم، فقد اعتلى الحزن وجهه، تخلّى عن الحديث معي.. إن رآني من بعيد فرَّ كأنما يفر من طاعون، شعرت بيُتم جديد يضاف إلى سِجلّ خيباتي.. لم أجد من استنجد به سوى سعيد.. دخلتُ مقبرة عائلتنا للمرة الأولى في حياتي، قصدتُ قبر سعيد مباشرة، فلم أنتبه لقبر أبي وأحمد الذي تمدَّد وحيدًا في ذلك الركن البعيد، وقد خرجت من قبره أعواد الزرع الخضراء تنتصب وكأنها تعاتبني على تجاهلي لجارها.. جلست أبكي أمام سعيد وكأنني أبكي حزن حياتي، أشكو له عمرًا وَهَبَ لي ليؤلمني، وأبناءً ربَّيتهم ليكملوا مسيرة وجعي، منحته اعتذارًا لائقًا بأن قبَّلت التراب أمام قبره، فلم أكن أعلم قبل اليوم أنه رغم قسوته كان يكملني، أنا من فضَّلت الحياة في ماضٍ انتهى، وسجنت مستقبلي خلف طيف أحمد، أنا من أخطأ بمنحه جسدًا مسجًّى تخلّت عنه المشاعر، فانقلبت الطيبة بداخله إلى نار تحرقني قبل أن تحرقه.. وقفتُ أمام قبر أبي أعتذر عن جحيم ذنب حمَّلتُهُ له، وبكيت وأنا أتذكر ذلك الرجل الذي منحني للمرة الأولى طعم التميز.

كدت أخرج من المقبرة، لولا أن جذبتني مشاعري القديمة تجاه قبر أحمد، وقفت أمامه خجلى تنساب دموعي، لا أدري كم من الاعتذارات يجب أن أقدِّم، ولا كمَّ الأعذار التي تهرب بمجرد أن أفكِّر بها، ها أنا الآن أقف وقد خسرت كل من

أحببت، أنتصبُ أمامهم أبحث عن مكان يناسب جسدي عندما يحين الأجل وألحق بهم، ترى من منهم سيقبل أن يجاورني؟ أبي الذي ضننتُ عليه بمغفرتي، أم أحمد الذي تزوَّجتُ شقيقه، أم سعيد الذى تزوجته وأنا أعشق أحمد؟! ترى من منهم سيغفر لي؟ وأنا من علّمتهم كيف يكون النكران، من الآن فقط سأسامح حتى يسامحني من أساتُ إليه.

نديـــــم..

كنت أضعف من أن أتمسك بطفلي من أجلها، وقفت أتأمَّل الطبيب الذي طالبني بسرعة التوقيع حتى يُجهضَ طفلي، لعنتُ ذلك القلم الذي أُمسك به بين أصابعي، والذي وقّعتُ به على صحيفة طلاقنا، وكأنني نذرته فقط لذبحها.. وقفت أمام غرفة العمليات أنتظر أن يحوِّل أحدهم ابني إلى أشلاء،وأنا أمام الباب أقف كأنني بباب جهنم أنتظر،ما كان يؤلمني هو أنها لن تسامحني قط على ذلك التوقيع الذى حرمها من شيء كانت تعتقد أنه خلاصها من تلك الحياة البغيضة، أملها بالحصول على طفلنا الذب سيعوضها يُتْمَ أب أناني، وشقيقٍ مهملٍ، وزوجٍ نرجسيٌ فضَّل أن يقذف بها إلى قارعة الطريق عند أول اختبار.

جَبُنْتُ عن رؤيتها تئنُّ فغادرتُ المستشفى، جلستُ في تلك الشرفة التي تصافح النيل دومًا فتمنح مزاجي المتكدِّر طعم الراحة.. لكنَّها تتألم، وهي حبيبتي التي منحها غروري لقب زوجتي السَّابقة، كيف أعيش وأنا أعلم أنني من غذَّيْتُ بشرايينها ذلك التمزُّق؟

في اليوم التالي ذهبت لأتفقّدها فهالني ما رأيت!صرخت بالممرضات: "من الذي فعل بها ذلك".

فأجابتني إحداهن: "أصيبت زوجتك بحالة من الهياج عندما علمت بإجهاض الطفل فأمر الطبيب بوضع تلك القيود حتى يتم السيطرة عليها".

مغمضة العينين هي، لكنها تراني.. همسَتْ في ضعفٍ: لم قتلتَهُ؟! ألم أخبرك أنني أريده؟

وقفتُ أتأمَّل قيودها، وأجبت وقد صدمت شعورى قسوة المشهد: اقبلي اعتذاري يا نهاد.. خشيت عليكِ.. فأنا ما زلتُ أحبك.

صرخَتْ بقسوة: ولكنني أكرهك.. لستَ بشرًا.. أنت وحش انعدمت عنده روح الأبوة ولمسة الإنسانية.

قلت في سرعة: حبيبتي.. اقبلي اعتذاري.. تعافي فقط وسأصلح كل ما أفسدت.

صرخت: لا تقل حبيبتي.. أكرهك.. أكرهك.

قلت: نهاد.. سامحيني فلا أتحمل إيذاءكِ.

قالت: دع الطفل يسامحك أولًا وعندها لن أسامحك أنا إلى أن يحكم بيننا الله.. حسبي الله ونعم الوكيل.

غلبتني الدموع فناديتها: نهاد...

صرخت: اذهب.. فأنا لا أتحمَّل وجودك.. اذهب.

ذهبت.. تركت مصر وقصدت مكانًا ما بشمال إنجلترا، أطلقتُ لحيتي وأهملت حياتي، عشت فقط أتجوَّل في الشوارع الجليدية أبحث عن شيء ما لا أعرفه، أقضي الأيام والساعات أوقد خشب المدفأة الذي إن عرَّضتُه لقلبي لأجهز عليه قبل أن تُجهز عليه النيران.

هــــــاد..

أودعني أبي إحدى مستشفيات الأمراض النفسية الخاصة حتى يبرِّئ نفسه من ذنب إهمالي، استسلمتُ.. فلم أجد هدفًا للمقاومة، وجدت في استسلامي سببًا جديدًا لأشعر بالظلم الذي ألفتُه، ظلمتني بسيمة عندما طرحَتْ عنها الحقد وسامَحَتْهُم؛ لذا لن أفعل مثلها، أبي لم يطلب قط مسامحته، وندم لا يريد حبيبة ينتمي إليها، وإنما يتمنَّى أن يصحِّح خطأ ارتكبه، وليس بعد سماحه بإجهاض جنيني عذر يدفعني للإبقاء عليه، كل شيء من حولي أبيض يحمل طعم السواد، فراشي أبيض.. جدران غرفتي وستائرها.. حتى السماء غلب على زرقتها الخيالية سحب الأبيض، أقضي يومي أبحث عن سبب لحياتي، يسامرني الأطباء فتنادمني خيباتي، كلما تخلَّصتُ من وجعٍ وَلَدَتْ ذكرياتي آخر، كلما اختلقت همسة تسعدني عذبتني أحداث حياتي، أيها القدر لمَ اخترتني لهذه المهمة؟ لمَ لمْ أكن كأيِّ امرأة تحزن حينًا وتسعد حينًا؟ لمَ منحتني أمًّا مثلها وأبًا تعرفه؟ لم نزعتَ مني جوادًا ومنحتني ندمًا؟ رضيتُ بظلمه لي وقهره لمشاعري، ورغم ذلك نزعته عني كما يُنزَع الجلدَ، وبقيت مشوهة بلا بشرة، أتوارى عن الناس حتى لا أوذي بصرهم.. ما جدوى حياتي التي عشتُ جُلَّها أتضرع إلى الله أن

يخلصني مما أعاني ولم يستجب لي، وكان طريق خلاصي الوحيد هو الموت.

تنازعتني رغبة في الانتقام، رغم أني أدرك تمامًا أنني لن أنتقم، ورغبة في الانتحار رغم أنني لن أتوِّجَ عذاب حياتي بذنب لا يقبل الغفران، لو كانت حياتي ملكًا خالصًا لي لما ترددت في وضع نهاية لها.

تمنحني زيارات سامي سببًا جيدًا لأغضب من أبي، وتمنحني زيارات أبي سببًا قويًا لأحقد على سامي، ووجودهما معا يمنحني حقًّا مشروعًا في كراهية نديم الذي توقَّف منذ أسابيع عن استجداء وصالي.. تنامت الكراهية بداخلي فغمرت هواء العالم من حولي، عجزتُ عن السيطرة على تلك الجذوة التي أحرقت كل ما حولي، وفشلت كل الأدوية في عقد ذلك السلام بيني وبين نفسي.

اعتدتُ النيران فهدأتُ قليلًا، ووجدها سامي فرصة لفك أسري، غادرت المستشفى محاولة عقد ذلك الصلح قسرًا، للمرة الأولى صرخت بسامي قائلة: "أشعر أنني ضائعة بين الحقد والكراهية.. تتقاذفني أمواج الرغبة في الانتقام منك ومني، لا هدف لي سوى قتل مشاعري ووأد نفسي.. ظللت طوال حياتي ألفق بنود سلامٍ أدرك دومًا أنه لن يتم.. كيف أستريح ياشقيقي.. سئمتُ التَّعب".

ظل مطرقًا يستمع إليّ، ونطق أخيرًا فقال: أنت تحتاجين لحبيب يُعلِّمُ خوفَكِ كيف يكون حس الأمان، حبيب كامل لا يخون رغم كل حبيباته، تدرين.. أنا خنت، وجواد أيضا اجترح يومًا خطأ الخيانة، لا تتوقعي من البشر ما لا يستطيعون، خلقنا الله وبداخلنا ذلك الضعف الذي يسقينا دومًا لوعة الندم؛ لذا إن أحببتِ فلتختاري الكامل الذي لا يضعف، هَبي كلَّ مشاعرك وحواسك لله، عندها فقط ستفقدين نكهة اليأس.. صدِّقيني.

كان صدق كلماته يهزني من الدخل، ويثير بي أشياء لم تصحُ من قبل بليل تفكيري، كنت أصلّي طوال حياتي؛ ليس حبًّا في جنة ولا خوفًا من نار، لكن فقط لأنني يجب أن أصلّي، أساعد من يحتاج فقط من أجل أن أسعد بفعل المساعدة، أبذل مالي فقط لأن بداخلي ما يدفعني دفعًا لإعطاء محتاج، أحب الله لأنني تعلمت أن أحبه وليس لرغبتي في الحب.

ارتديت الأبيض ورافقت سامي إلى الأراضي المقدسة كي أجد مكانًا أبدأ به حبًّا يليق به، وقفت من بعيد أتأمّل الحرم المكّي يتلألأ من بعيد كماسة كبيرة تعكس ضوء المحبة والأمان، تجذب قلبي إليها وكأنها جنيَّة تسحبني من يدي لتغرقني، ولكنه غَرَقُ الحياة لا غَرَقُ الموت، ووجدتني أبكي وأبكي إلى أن غادرني الوعي.. رأيتها للمرة الأولى ترسم على وجهها المتغضّن

ابتسامة الراحة، تحرّك يدها مدلّـــلةً خصلات شعري، أخبرتني أنها سعيدة لبكائي، بسطت كفّها فنبع الماء من بين أصابعها فغسلَتْ وجهي، كنتُ غاضبة منها.. صرخت بها: إنتي ليه عملتِ كده؟ ليه سامحتيهم بعد كل اللي عملوه فيكي؟ ليه قضيتِ حياتك كلها تتعذبي بسببهم وفي الآخر غفرتي؟ ليه؟

ابتسمت قائلة: سامحتهم عشان أعيش اليومين اللي عشتهم مرتاحة.. الكُره يا بِتّي ما بيتعبش غير صاحبه.. إنتي عارفة اللي إنتي فيه ده كله جه منين؟ جه من زهقك على نفسك وإحساسك إنك دايمًا مظلومة. ربنا بيحبك يا بِتّي، واللي بيحبه ربنا بيعلمه يسامح عشان يروح له نضيف.

قلت في غضب: أسامح مين يا ستّي؟ أسامح أمي ولا أبويا ولا أخويا ولا نديم ولا إنتي؟

قالت: أنا بحبك يا نهاد.. محدّش في الدنيا دي حنّ عليَّ زيّك، أنا ما جيتش عشان أأذيكي، أنا ورّيتك اللي عمرك ما كنّتي هتصدقيه لو حد حكالك.. أمك مظلومة زَيِّك سامحيها.. لو اتعلمتي تسامحي هترتاحي.

قلت: هتسيبيني يا ستي؟

قالت: أمك بتجيلك على طول تاخدك في حضنها بس إنتي مابتحسّيش بيها.. سامحي يا نهاد عشان ما تبقيش لوحدك.. سامحي يا بِتّي.

راحت فأخذتُ أنادي، إلى أن أيقظني صوت الأذان وما زال وجهي مبتلًا من أثر يدها، وقلبي يغمره شيء جديد يمنحه شعور بالبرد لم أشعر به من قبل.

مرت شهور قضيتها مع شقيقي وأسرته، حاولت فيها إعادة تأهيل ذاتي، وعندما شعرت أنني كدت أُشْفى قررتُ العودة إلى مصر لأمنح حياتي حق البدء من جديد.. عدت إلى القرية.. فذهبت إلى بيت أبي وطرقت الباب، فتحت زوجة أبي.. لمعت على وجهها ابتسامة واحتضنتني للمرة الأولى منذ رأيتها، كنت دومًا أخشى ضَمَّتَها التي كنت أظنها دومًا كضمة الأناكوندا التي تحطّم ضلوع الضحية فتعتصر قلبها، كدتُ أختنق لولا أن حرَّرتُ عقلي من ذلك الخاطر شديد الإيلام.. من بعيد صافحت وجه أبي الذي لم يتصوَّر يومًا أن أدخل بيته الآخر، اقترب مني إلى أن حملني ودار بي في الهواء عدة دورات، فأدهشتني رشاقته وقدراته البدنية العالية.. جلست معه على طاولة الطعام فأطعمني بيده، وبين كل لقمة ولقمة يطبع على جبيني قبلة، شعرت أنني - وللمرة الأولى - طفلة، يبتسم قلبي قبل أن تبتسم ملامحي، علّمني كيف أمحو ذكريات عمر بلمسة واحدة، فسألته: "أين كنت يا أبي؟"

جمعت لي زوجة أبي باقة كبيرة من الورود عندما سألت أبي أن يرافقني للمقابر، وقفت أمامها خاشعة، تملأ عيوني الرهبة وكأنها المرة الأولى التي أزورهم فيها.. قبَّلت قبر جدتي وأهديتُها

زهرة، جلست أمام قبر أمي أتأمَّل الشجرة التي تحتضنه، وسرب الطيور الذي استوطنها؛ فتذكرت بسيمة الطفلة والبندقية فابتسمت، قرأت لهم الفاتحة، وقبل أن أغادر وضعت على قبرها عدة زهور.

وقفت أمام قبر جواد وقد تعلمت ألا أبكي أمامه، ابتسمتُ لتسعده ابتسامتي التي اختلطت بدموع لا أدري من أين نبعت، ربت أبي على كتفي وطالبني بالدعاء له، دعوت وقرأت ما استطعت من القرآن، وقاطعت دعواتي عبرات لا أدري لَمَ زارتني الآن، تعجَّب أبي وسألني وعيناه تتابعان يدي وأنا أنثر عليه الزهور: نهاد.. ماذا بك يا صغيرتي؟!

قلت: أبي اعتدت هنا دومًا أن تَشْتَمَّ روحي عطر جواد، وأن تغمرني همساته، اليوم لا أشعر بوجوده.. أبي.. اليوم فقط.. مات جواد.

ظللت عدة أشهر أُحَفِّزُ قلبي وأهيِّئه لذلك اليوم، يوم عودتي إلى العمل بعد انقطاع طويل، كنت أخشى شيئًا ما.. لا أدري إن كان لقاء الطلاب والزملاء، أم مواجهة نديم الذي فصم كل ما بيننا بعد ضياع طفلنا.

كان نديم هو رئيسي المباشر في العمل؛ لذا انتفضت كل خلاياي عندما أخبرني أحدهم أن الرئيس يطلبني، غلَّفتُ أملي

بطبقة من القوة التي عجزت عن السيطرة على ابتساماتي.. كم اشتقتُ إليه، تسابقت خطواتي مع دقّات قلبي في الممر المؤدّي لمكتبه، طرقت الباب ودخلت فتوقّف قلبي عن ضخ الدماء.. ليس هو.. وجدته جالسًا على مكتب نديم مرتديًا نظارات تسيطر على وجهه تكاد لا تفلت إنشًا من ملامحه، خلتُ أنه يبتسم، طالبني بالجلوس؛ فارتميت على أحد المقاعد المواجهة وقد خسرتُ فرحة العيد، رحَّب بي وأخبرني أنه سعيد للعمل معي، أخبرني أن ترقية نديم هي ما منحه ذلك المقعد الوثير، وسألني متخابثًا عن مدى استجابة نديم للعلاج بعد تلك الأزمة التي تعرَّض لها!

كدت أصرخ.. أي أزمة تلك التي تجرَّأت وضربت قلبه، لولا أن تذكرت أنني لا أسكن ذلك القلب، ظللت طوال الليل مسهَّدة إلى أن فاجئني جواد، جاءني يحمل زهرة يقطر منها عطر الشوق، لم أصدق أنه هو، فلم يمنحني أبدًا تلك الملامح العابسة، ابتسمتُ له فنكّس رأسه، سألته: لم غضبت مني؟

قال: نهاد.. أنت لا تفرِّقين بين من يحب ومن لا يفعل.. منذ رحلتُ وأنا أرى تلك الدمعة بعينيك وأنت تدرين أنني لا أتحمل بكاءك..

قلت بسرعة: جواد.. أعتذر.. طالما عدت إليَّ فلن أبكي ثانية أقسم لك.

قال: لا.. نهاد.. لم أعد إليكِ.. لقد منحتُ حياتي لندمٍ من أجلك.. والآن أنتِ تُهدِرين تلك التضحية.. إلى متى ستعذبينني؟ لقد سئمتُ عنادكِ!

قلت: لكني لم أفعل ما يؤذيك.. أنا أحبك..

قال: أنت تعشقين الماضي في صورتي.. نهاد أنا ميت.. هلّا تكفّين عن عشق الأموات من أجلي؟

تردد صوته حولي: "أنا ميت.. ميت".. فانتفضت من فوق فراشي تبحث عيناي عنه× فاكتشفت أنه تلاشى كما تلاشى النوم عن رأسي، نظرت إلى الساعة فشكّلت لي ملامح السادسة، ظللت ممدة في فراشي أفكّر إلى أن أعياني التفكير.. أخشى إن سألتُ عنه أن يحتقرني ككل رجل يعلم باهتمام أنثى لأمره، وأخشى إن لم أفعل ألا أسامح نفسي.

تناولت إفطاري وأخذت أبحث عن مفاتيح سيارتي نصف ساعة، ووجدتها أخيرًا بيدي، قدت السيارة إلى الجامعة ولا أعلم كيف فعلت، أخيرًا حسمت أمري، هاتفت إحدى شقيقاته والتي حادثتني بترحاب، أخبرتني أنه مريض جدًّا فسألتها أن تسمح لي بزيارته، وألّا تخبره بقدومي، في الموعد وجدتها تنتظر، احتضنتني بقوة، أمسكت بيدي وسرنا في الطريق المؤدّي إلى غرفة الرعاية التي يرقد بها، توقّف قلبي

فتوقفت عن السير، جبنت عن الاقتراب فتساءَلَتْ عمَّا أصابني، غلبني البكاء، ووجدت كل ما بي ينتفض، أحاطتني بذراعيها محاولة تهدئتي إلى أن ذهب ذلك الروع، أخبرتها أنني أحبه لكنني لا أستطيع منحه ذلك الشعور ليتفوق علي ويقتلني، أخبرتها أنني أموت شوقًا لرؤيته ولكنني لا أنسى ما فعل بي، أخبرتها أنني فقط.. أعشقه وبكيت.

طالبتني بالتماسك، ومنحتني لحظات مختَلَسة من خلال الزجاج، فتنامت لدي الرغبة في البكاء.

مرَّت شهور وأنا أحارب نفسي، أنتصر بمعركة لأكتشف أنني سقطت جريحة بباقي المعارك فأفقد نشوة النصر.

أخبرتني زميلة أنه عاد إلى العمل؛ فعادت مخاوفي وألحَّت عليَّ جراحي، بحكم موقعه طلب الاجتماع بكل أساتذة القسم، خشيت أن أتغيَّب فأمنحه نكهة الضعف، قررت حضور الاجتماع، لململت شعري ومخاوفي، أكثرت من عطري الهادئ ليغلب على رائحة الخوف التي زكمت كل مشاعري، جلست كالجميع، لولا أنني شعرت بالوحدة، كانت المرة الأولى التي نجتمع بها - بعد طلاقنا - في الجامعة، لقاء كان يترقبه الجميع، وكنت في الترقب أوهم، في الاجتماعات السابقة كان يجلس أمامي يرسل إليَّ رغم ملامحه الجادة إشارات الغزل.

دخل القاعة فَعَلَتْ الهمهمات، وسقطت عيناي تحت أقدامي، خشيتُ إن رفعتهما أن يرسلا له حِبْرَ الأشواق ليكتب على باب حياتي كلمة "رخيصة".

غلب عطره على حواسي فأدركت أنني على وشك الهلاك، رفعت وجهي فوجدته مثبتًا عيناه على عينيَّ، سقط القلم من يده وسقط قلبي تحت قدميه، ارتجف قلبي وشعرت أنني الآن أحتضر، كلا.. إنني أولد ثانية، إنني أعشق ذلك الرجل الذي ينتصب أمام الجميع في مهابة، ترنو إليه أنظار النساء في وَلَهٍ، وترنو نفس الأنظار إليَّ بشماتة، غبية من تفقد رجلًا مثله، وغبية أكثر من تتحمل جحيم ضلوعه، يقف على بعد مترين مني، ورغم ذلك تفصل بيننا مساحة العالم، كلمة واحدة لفظها فأقصتني عنه، أحتاج معجزة تعيدني إلى ذراعيه، لو أن لي كرامة غير تلك التي أخشى عليها لارتميت راكعة أمامه؛ كم هو صعب أن يكون بعد كل ذلك الزخم غريبًا، بعد أن كان يسكنني.. ألف ويل!

انتهى الاجتماع؛ فلملمت أوراقي.. سمعت اسمي يخرج من بين شفتيه في رقة يسألني إن كان لديَّ الوقت لمشاركته شرب فنجان من القهوة، تسمَّرت نظرات الجميع عليَّ فابتسم قائلًا:

هل ثمة من يعترض؟

تجمّدت أطرافي وأنا أتبعه إلى مكتبه، أشعر برهبة في وجوده بعد أن كان الأمان يملأ خلجاتي، ظللت جالسة لدقائق سد فيها الصمت ثغور التمنّي، خلع نظارته الطبية باهظة الثمن، فظهرت عيناه تتألقان تعكسان بريق الشمس، قدم لي القهوة قائلًا: لم أنس قط مذاق القهوة في وجودك.

قلت: نكهة القهوة لا تتغير بتغير الرفقة.

قال: بل تتغير.. دكتورة نهاد.. طلبت لقاءك اليوم لأطالبك بالانتظام في العمل؛ فلن أسمح بأي شيء يعطل مصلحة الجامعة.

تخلّت سحب الأمنيات عني فسقطت من سمائها على الأرض كسيرة ولم أجب، شعرت بخوف منه بل خشيت عليه مني، ارتجفت كل خيالاتي فقلت في غضب: هل نفّذتَ ذلك العرض شديد الرومانسية أمام الجميع فقط لتخبرني بأنني أعطّل مصلحة الجامعة؟

قال في بساطة: هل بيننا ما نتناقش حوله سوى الجامعة؟

خنقتني خيبة الأمل، لكنني فضلتُ خوض الحرب للنهاية فقلت: الآن فقط أدركت أن لا شيء يجمعنا، بل لم يجمعنا شيء قط، كانت قصائد الشعر كذبة كبيرة غاصت بها أحلامي، زيّفت بيننا كل شيء، أغرقتني بوهم الحب، والآن تنفضه من فوقي لأحد ذاتي عارية تمامًا إلا من سخريتك.

قال بهدوء: هاد.. لقد انتهى كل شيء.. لا داعي للاتهامات.. فأنت من تسبّبتِ بكل ما حدث.. أنتِ من رفضت العودة إليّ.. أنتِ من فضلتِ جوادًا وأنا من منحتك حياتي..

قاطعته في حدة: جواد ميت.. لقد فضّلك على نفسه من أجلي.. لقد دمَّرت حبي وحياتي لأجل غيرتك من ميت.

قال: هو بقلبك لم يمت.

صرخت بداخلي العبرات فقمعتها وقلت بهدوء: إن عاش بداخلي ميت فأنت قتلت بداخلك حبي الحي، كم خنتني وصفحتُ، كم جرحتني وتسامحتُ.. كيف سمحتَ لهم بقتل طفلك.. الآن من أين لي بطفل منك؟

اهتزت نظراته وقال: هاد.. انتهى كل شيء.

قلت وقد أعماني الوجع: نعم نديم.. الآن فقط أدركت أنه انتهى.

خرجت من عنده وقد فقدت كرامتي وقلبي؛ فشعرت وكأن العالم تحت قدميَّ قد توقّف، كلما حاولت الإسراع في الخطو كلما تباطأت خطواتي، كدت أسقط أرضًا لولا بقايا كبرياء أمسكت بيدي لأعتمد عليها، فجأة سمعت صوته مطعَّمًا بوقع خطوات افتقدها أذني، ناداني فلم أقوَ على الإجابة، جذب

صوته انتباه الجميع، فرأيتهم من خلال دموعي يصوِّبون أنظارهم إلينا، أمسك بيدي، قبَّل جبيني، وقال وقد نبعت من عينيه سواقي الدموع: هاد.. اغفري لي.

فغفــــــــــــــــــــــــــــــرت له.